بقلم: إبراهيم مصطفى شحاتة

على الصراط

كيف تكون مسلمًا وسطيًا من القرآن والسنة



مقدمة الكتاب

"الوسطية في الإسلام: طريق القلب والعقل"

الحمد لله الذي أنزل الكتاب هُدًى ورحمةً للعالمين، واصطفى من عباده أُمَّةً وسطًا تشهد على الناس، ويشهد عليها خير خلقه محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، أرسله ربُه بالهُدى ودين الحق ليُظهِره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً.

أما بعد...

فإنّ الوسطية ليست مصطلحًا عصريًا مستحدثًا، ولا شعارًا يُرفع في أزمنة الانحراف، بل هي ركنٌ أصيلٌ من أركان هذا الدين العظيم، وهي سمَةُ أمة الإسلام، وعنوان منهجها، ونَبض رسالتها. قال تعالى:

"وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا"

(سورة البقرة: 143)

فما أحوجنا اليوم، في زمن التخبّط والانحراف، والغلوّ والتفريط، إلى أن نُعيد اكتشاف هذه الوسطية، لا ككلمةٍ تُقال، بل كمنهج حياةٍ يُعاش.

إنّ الإنسان المسلم الوسطي هو الذي يعيش دينه بعقلٍ واعٍ، وقلبٍ مُحبّ، ونفسٍ مطمئنة، لا يغلو في التكاليف حتى يُهلك نفسه، ولا يُفرّط في أوامر ربه حتى تذبل روحه.

هو الذي يعلم أنّ الله لا يُريد لعباده العنت، بل يُريد بهم اليُسر، قال تعالى:

"يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ"

(سورة البقرة: 185)

وإن هذا الكتاب الذي بين يديك، لم يُكتب استعراضًا للمفاهيم، ولا تنظيرًا فكريًا مجرّدًا، بل كُتب من القلب ليصل إلى القلب. كتبه من يرجو به وجه الله، ويطمع أن يكون سببًا في هداية نفسٍ حائرة، أو تقويم فكرٍ مائل، أو إعادة نورٍ خافت في قلبٍ أرهقه التّيه.

سنمضي سويًا بإذن الله في رحلة ممتدة على خمسة أبواب، نُسلّط فيها النور على معاني الوسطية، نستخرجها من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ونربطها بواقعنا المعاصر. سنحمل في كل فصل نورًا من الكتاب، وهديًا من الحديث، نحملها على أكتاف الفهم السليم، والنية الطيبة، لنعيد رسم ملامح المسلم الوسطي في زمن المتغيرات.

ولعلّ الله يجعل من هذه الصفحات زادًا لمن أراد السير في طريق الرشاد، ونورًا لمن أراد الهروب من ظلمات الانحراف والغلو.

فنسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، نافعًا لعباده، شاهدًا لنا لا علينا، وأن يجعلنا وإياكم ممن قال فيهم:

"وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ"

(سورة العنكبوت: 69)

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إهـــداء

إلى منارة العلم، وحصن العقيدة، وقلعة الوسطية:

إلى الأزهر الشريف، ذلك الصرح العظيم الذي حفظ للأمة دينها، ونشر نور الإسلام المعتدل في أصقاع الأرض،

إلى علمائه الأجلّاء، ومشايخه العظماء، الذين جاهدوا بالعلم والتعليم، فكانوا سُرجًا تضيء الطريق للسالكين،

وإلى أساتذتي الكرام، الذين منحوني من وقتهم وعلمهم وصبرهم، وغرسوا في قلبي محبة الدين، وفهم القرآن والسنة، وزرعوا في عقلي بذور الوسطية والاعتدال،

إليكم جميعًا، أهدي هذا العمل المتواضع،

عرفانًا بفضلكم، وامتنانًا لجهودكم، ووفاءً لما غرستموه في روحي من علمٍ وهُدى.

جزاكم اللّه عنّي وعن طلاب العلم خير الجزاء، ورفع قدركم في الدنيا والآخرة.

الباب الأول: مفهوم الوسطية في الإسلام

الفصل الأول: تعريف الوسطية لغةً وشرعًا

حين نتأمل واقع الناس في مواقفهم، نجد من يبالغ حتى يتجاوز حدود الفطرة، ومن يُهمِل حتى يُفرّط في دينه، ومن يقف في المنتصف يزن الأمور بميزان العدل والحكمة. وهنا يظهر نور الوسطية، كطريق رباني بين الإفراط والتفريط، بين الغلوّ والتمييع، بين الجفاء والمبالغة. فماذا تعني "الوسطية" في أصلها؟ وكيف يُعرّفها الشرع؟

أولًا: الوسطية في اللغة

الوسط في اللغة هو: الخِيار والأفضل والأعدل، قال ابن فارس: الوسط من كل شيء أعدله، ومنه سُميت قريش وسطًا لأنها كانت أوسط العرب نسبًا.

وقال تعالى: "جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا" (سورة البقرة: 143)

أي: خيارًا عدولًا، كما فسره أغلب المفسرين، ومنهم ابن جرير الطبري وابن كثير.

فالوسط لا يعني فقط التوسط بين طرفين، بل هو المقام الشريف العالي، والمرتبة المتوازنة بين ما يجب وما يجوز، وما هو معقول وما هو مشروع.

ثانيًا: الوسطية في الشرع

الوسطية في المفهوم الشرعي ليست مجرد موقع في المنتصف بين شيئين، بل هي منهجٌ رباني متكامل، قائم على العدل والرحمة والاعتدال في الاعتقاد والعبادة والسلوك.

قال تعالى:

"وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا" (سورة الإسراء: 29)

في هذا التوجيه الإلهي نرى كيف يأمرنا الله بالوسطية في الإنفاق، لا بالبخل ولا بالإسراف.

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم:

"إن هذا الدين يُسر، ولن يُشاد الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا..." رواه البخاري (39)

وهذا الحديث الشريف يبيّن أن الغلو في الدين ليس من منهج الإسلام، وأن الوسطية هي سبيل الثبات والاستمرار في الطاعة دون انقطاع.

ثالثًا: الوسطية في العقيدة

الوسطية تتجلى في عقيدة أهل السنة والجماعة، فهم وسطٌ بين فرق الغلو وفرق الجفاء.

فهم يُؤمنون بالله وأسمائه وصفاته كما أثبتها لنفسه دون تحريف أو تعطيل، ودون تشبيه أو تمثيل.

ويؤمنون بالرسل في منزلتهم الحقيقية، فلا يغلو أحد في نبي، ولا يجفو عنه، بل يوقرونه كما أمر الله.

قال تعالى:

"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ" (سورة النساء: 171)

رابعًا: الوسطية في السلوك

في سلوك المسلم، تتجلى الوسطية في:

العبادة: لا يُكلّف النفس فوق طاقتها، ولا يهمل فروضه، بل يؤديها بخشوع واستقرار.

المعاملة: لا يقسو حتى ينفر، ولا يُداهن حتى يضيع الحق، بل يمزج الصدق بالحكمة، والرحمة بالحزم.

وقد ثبت عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

"دخل النبي ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين ساريتين، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا حبلٌ لزينب، إذا فترت تعلّقت. فقال النبي ﷺ: حلّوه، ليصلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد" رواه البخاري (1150) ومسلم (784)

وفي هذا دلالة واضحة على أن الوسطية تشمل حتى اجتهاد الإنسان في طاعة ربّه.

خامسًا: الوسطية شرفٌ لهذه الأمة

قال تعالى:

"وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا" (سورة البقرة: 143)

أي أن الله اصطفى هذه الأمة لتكون شاهدة على سائر الأمم، لأنها تمثل العدل، والحق، والاعتدال في كل شيء.

قال ابن كثير رحمه الله: الوسط هاهنا هو الخيار والأعدل، كما يُقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي خيارها.

خاتمة الفصل:

إنّ الوسطية في الإسلام ليست ضعفًا ولا تخاذلًا، بل هي قوة متزنة، ومنهج رباني، وفهم عميق للحياة، يجعل المسلم متزنًا في عقيدته، متزنًا في عبادته، متزنًا في سلوكه، ومستنيرًا في فكره.

في الفصول القادمة، سنتناول تفصيلات أعمق عن تطبيقات هذه الوسطية، في العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات. فلنمشِ معًا على هذا الطريق، مستضئين بنور الوحي، ومسترشدين بهدي النبي ﷺ، راجين من الله أن نكون من الذين قال فيهم:

"وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (سورة البقرة: 82)

الفصل الثاني: الوسطية في العقيدة

إذا أردنا أن نُدرك كيف تكون العقيدة وسطية، فلا بد أن ننظر أولًا في حال الأمم من قبلنا، وكيف انحرفت طوائف منها عن التوحيد الخالص، فإما أن غالَت في تعظيم البشر فرفعتهم إلى مقام الألوهية، أو جفَت عن الأنبياء والرسل فأنكرتهم أو آذتهم. فجاء الإسلام، دين الفطرة والنور، ليضبط الميزان، ويقيم القلوب على وسطية العقيدة: لا غلوّ فيها ولا جفاء، بل عدلٌ ورحمةٌ وتوازن.

أولًا: وسطية التوحيد

جاء الإسلام بالتوحيد الخالص، الذي يُنزِّه الله عن الشبيه والمثيل، ويُثبِت له ما أثبته لنفسه من صفات الجلال والكمال، دون تعطيل أو تأويل أو تمثيل.

قال تعالى:

"قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ" (سورة الإخلاص: 1-4)

الإسلام لم يجعل لله ولدًا، كما قالت النصارى، ولا جعله كأحد من خلقه كما فعل المشبّهة، بل أثبت له الأحدية والكمال، ونفى عنه النقص والشركاء.

ثانيًا: الوسطية بين الغلو والجفاء في الأنبياء

الإسلام وسَط بين من غالى في الرسل حتى عبدهم من دون الله، ومن جحد نبوتهم واتهمهم بالكذب.

قال تعالى مخاطبًا أهل الكتاب:

"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ" (سورة النساء: 171)

أما أمة الإسلام، فقد علمها نبيها أن تقول:

"لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله" رواه البخاري (3445)

فهو عبدٌ مكرم، ورسول مصطفى، لكن لا يُعبد ولا يُدعى من دون الله، ولا يُقصى ويُكذّب.

ثالثًا: الوسطية في الإيمان بالقدر

الإسلام وسَط بين القدرية الذين أنكروا علم الله السابق، والجبرية الذين نفوا عن الإنسان الاختيار.

قال رسول الله ﷺ:

"آمنتُ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره" رواه مسلم (8)

فالمسلم يؤمن أن الله يعلم كل شيء، وقد كتب مقادير الخلق، وأن للعبد مشيئة واختيارًا ضمن مشيئة الله، فلا هو مجبور كالحجر، ولا هو متروك يُدبّر الكون كما يشاء.

قال تعالى:

"وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ" (سورة الإنسان: 30)

رابعًا: الوسطية في الإيمان بالغيبيات

الإسلام يأمر بالإيمان بالغيب إيمانًا متزنًا، فيصدق المسلم بما جاء به الوحي، دون تهويل أو استخفاف.
قال تعالى في وصف المؤمنين:
"الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ" (سورة البقرة: 3)
فنحن نؤمن بالملائكة، والجن، والبعث، والجنة، والنار، والميزان، والحساب، وكل ما ثبت في الكتاب والسنة، لكن دون خرافات، أو تخيلات، أو تجاوز لحدود النصوص.

خامسًا: الوسطية في الموقف من الصحابة

يتميز أهل السنة والجماعة بالوسطية في الصحابة رضي الله عنهم:
لا يغلون فيهم فيرفعونهم فوق مقامهم.
ولا يسبّونهم أو يطعنون في عدالتهم كما تفعل بعض الطوائف.
قال النبي ﷺ:
"لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه"
رواه البخاري (3673) ومسلم (2540)
فالصحابة عدولٌ خيّرون، وهم أفضل جيل، ولكن العصمة ليست لأحدٍ بعد رسول الله ﷺ.

سادسًا: الوسطية في التكفير

الإسلام يضع ضوابط واضحة لمن يُكفَّر ومن لا يُكفَّر، فلا يُخرِج المسلم من دائرة الإسلام لمجرد ذنب أو خطأ، كما يفعل الخوارج، ولا يُهمل العقيدة، كما تفعل المرجئة.
قال النبي ﷺ:
"من قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما" رواه البخاري (6104)
فالمسلم الوسطي يحكم بالكفر حيث دلّ الدليل، ويمتنع عن التسرع والظلم، ويحترز في أحكامه على الناس، لأن التكفير حق لله ورسوله، لا يُناط بالهوى أو الغضب.

خاتمة الفصل:

عقيدة الإسلام عقيدة وسطية نقية، لا تتطرف ولا تتهاون، تُنير العقل وتطمئن القلب، وتربط الإنسان بربه رباط حب وخوف ورجاء.
فمن تمسك بهذه العقيدة بفهمٍ سليم، وتوازن راشد، نجا في الدنيا، وثبت على الصراط يوم القيامة، وكان من الذين قال الله فيهم:
"إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ..." (سورة فصلت: 30)

الفصل الثالث: الوسطية في العبادة

العبادة في الإسلام ليست مشقةً تُرهق الجسد، ولا طقوساً شكلية بلا روح، وليست انقطاعاً عن الدنيا، ولا انسياقًا خلف الشهوات. بل هي ميزانٌ دقيق بين الجسد والروح، بين الدنيا والآخرة، بين العمل والنية. وقد جاءت شريعة الإسلام بـ الوسطية الباهرة في العبادات، تحفظ التوازن النفسي والجسدي، وترفع الروح دون أن تُثقل الجسد، وتربط الدنيا بالآخرة ربطًا سليمًا.

أولًا: العبادة شاملة لا محدودة

العبادة في الإسلام ليست محصورة في الصلاة والصيام فقط، بل تشمل كل عمل يُبتغى به وجه الله.
قال تعالى:
"قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (سورة الأنعام: 162)
فكل لحظة في حياة المسلم يمكن أن تتحول إلى عبادة، بشرط النية الصالحة، وهذا من أعظم صور الوسطية، أن الدين لا يُخرِجك من الحياة، بل يطهّر حياتك لتكون عبادةً للّه.

ثانيًا: الوسطية بين الإفراط والتفريط

نهى النبي ﷺ عن الغلو في العبادة، كما نهى عن التهاون فيها، وبيّن أن أحب الأعمال إلى الله ما كان دائمًا وإن قلّ.
عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:
"جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء النبي ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم للّه وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" رواه البخاري (5063) ومسلم (1401)
هذه هي الوسطية النبوية: عبادة فيها روح، لكنها متّزنة، فيها خشية، لكنها بلا عنَت ولا مشقة مفرطة.

ثالثًا: الوسطية في الصلاة

الصلاة عماد الدين، لكنها لم تُفرض ليشق الله بها على عباده، بل لتكون راحةً للقلب، وسكينةً للروح.
قال النبي ﷺ:
"جعلت قرة عيني في الصلاة" رواه النسائي (3939) وحسنه الألباني
وقد نهى رسول الله ﷺ عن إطالة الصلاة في جماعة إذا شقّت على الناس، وقال لمعاذ حين أطال بهم:
"أفتّان أنت يا معاذ؟!" رواه البخاري (6106) ومسلم (465)
فالصلاة الوسطية هي التي تجمع بين الخشوع والراحة، بين الطمأنينة والخفة، بين الروحانية والانضباط.

رابعًا: الوسطية في الصيام

الصيام في الإسلام عبادة عظيمة، لكنه ليس تجويعًا للنفس، ولا تعذيبًا للجسد، بل هو تهذيب للنفس، وتدريب على الإرادة.

قال تعالى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (سورة البقرة: 183)

وقد نهى النبي ﷺ عن صيام الدهر، وحث على التوازن، فقال:

"أفضل الصيام بعد رمضان صيام داوود عليه السلام، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا"

رواه البخاري (3418) ومسلم (1159)

خامسًا: الوسطية في الذكر والدعاء

الذكر عبادة عظيمة، لكنه لا يكون بالصراخ ولا بالغفلة، بل بتدبّرٍ وحضور قلب.

قال تعالى:

"وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ" (سورة الأعراف: 205)

وقد كان النبي ﷺ إذا دعا، لا يعتدي في الدعاء، ولا يُطيل التطويل المملّ، بل كان دعاؤه جامعًا مانعًا، فيه رجاءٌ بلا تجاوز، وخوفٌ بلا يأس.

سادسًا: الوسطية في العزلة والمخالطة

بعض الناس يرى العبادة في الانعزال عن الناس، والبعض يغرق في العلاقات حتى ينسى الله، لكن الإسلام علّمنا أن العبد الوسط هو من يخالط الناس ويصبر عليهم، ولا ينعزل عن واجباته الاجتماعية.

قال النبي ﷺ:

"المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم"

رواه ابن ماجه (4032) وصححه الألباني

خاتمة الفصل:

إن الوسطية في العبادة ليست تقليلًا من شأن العبادة، بل هي تحقيق لمقصدها الأعلى: الإخلاص، والتوازن، والدوام. فالعبادة التي تنهك البدن وتفسد القلب ليست مقصودة، والعبادة التي تكون شكلًا بلا جوهر، لا تُرضي الله.

المسلم الوسطي هو الذي يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه، فإنه يعلم أن الله يراه، يعيش الصلاة بخشوع، والصيام بتقوى، والذكر بخشية، والدعاء بتضرّع، لا يملّ ولا يملّ الناس منه.

قال تعالى:

"وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ" (سورة الحج: 78)

الفصل الرابع: الوسطية في الأخلاق

حين يُذكر الإسلام، يُذكر الخلق. فالأخلاق هي الواجهة العملية لهذا الدين، وهي انعكاس العقيدة على السلوك. ولذا، لم يكن غريباً أن يصف الله نبيّه محمداً ﷺ بقوله:

"وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" (سورة القلم: 4)

لقد جاءت أخلاق الإسلام قائمة على الوسطية في كل تعامل؛ فليست أخلاقًا متوحشة جافة، ولا أخلاقًا ضعيفة متهاونة، بل هي أخلاق التوازن بين الحزم واللين، بين الصدق والحكمة، بين الصراحة والستر.

أولًا: الصدق دون تهوّر، والكتمان دون خيانة

الإسلام يأمر بالصدق، لكنه لا يُبيح أن يتحول الصدق إلى فضحٍ أو إيذاء. ويحث على كتمان الأسرار، لكنه لا يقبل أن يُصبح الكتمان ستارًا على الباطل أو خيانة للأمانة.

قال النبي ﷺ:

"عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة..."

رواه البخاري (6094) ومسلم (2607)

ومع ذلك، لما سُئل ﷺ:

"هل يُؤتى المؤمن كذّابًا؟ قال: لا" رواه الإمام مالك في الموطأ (990/2)

فالمسلم الوسط لا يكذب، لكنّه لا يُفشي سرًّا يضرّ مسلماً، ولا يجرح بكلماته بحجة "الشفافية".

ثانيًا: اللين بلا ضعف، والشدة بلا قسوة

من أعظم صور الوسطية في الأخلاق أن يكون الإنسان لينًا بلا استكانة، قويًا بلا عنف.

قال تعالى لنبيّه ﷺ:

"فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ" (سورة آل عمران: 159)

فهو ﷺ لم يكن ضعيفًا ولا غليظًا، بل كان حازمًا في الحق، رحيمًا في التعامل.

ثالثًا: الحلم لا يعني الذل، والغضب لا يعني الظلم

الحلم من شيم العقلاء، لكنه لا يُفسَّر بالذل والضعف. والغضب طبيعة بشرية، لكنه لا يُترجَم إلى ظلم وتعدٍ.

قال النبي ﷺ:

"ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"

رواه البخاري (6114) ومسلم (2609)

وما أجمل ما وصف الله به عباد الرحمن:

"وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" (سورة الفرقان: 63)

رابعًا: التواضع لا يلغي الكرامة، والاعتزاز لا يكون كبرًا

التواضع في الإسلام خلق نبيل، لكنه لا يعني إهانة النفس أو مسح الكرامة، والاعتزاز بالنفس مشروع، بشرط أن لا يتحول إلى استعلاء على الخَلق أو كبرياء في الباطن.

قال النبي ﷺ:

"من تواضع لله رفعه الله" رواه مسلم (2588)

وقال ﷺ:

"لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر" رواه مسلم (91)

فالمسلم المتوازن يعرف قدر نفسه، لكنه لا يزهو بها، وينحني تواضعًا لله، لا لأهواء الناس.

خامسًا: الكرم دون إسراف، والاقتصاد دون بُخل

الكرم من صفات المؤمن، لكنه لا يعني أن يُفرّط الإنسان في ماله وعقله، والبُخل مذموم، لكنه لا يعني أن كل اقتصادٍ بُخلٌ.

قال تعالى:

"وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا" (سورة الإسراء: 29)

فالوسطية الأخلاقية هنا أن تعطي بسخاء، لكن بعقل، وأن تحفظ المال من التبذير، دون أن تتصف بالشح.

سادسًا: العدل مع الرحمة

من صور الوسطية الرفيعة: أن يُقيم الإنسان العدل، لكنه لا يُجرد هذا العدل من الرحمة، وأن يُنصف حتى مع من يكرهه.

قال تعالى:

"وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ" (سورة المائدة: 8)

وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال:

"اللهم من وَلِيَ من أمر أمتي شيئًا فشقّ عليهم، فاشقق عليه، ومن وَلِيَ من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم، فارفق به" رواه مسلم (1828)

خاتمة الفصل:

إنّ الأخلاق الإسلامية وسطية سامية، لا تتأثر بالهوى، ولا تنحرف بالعاطفة، ولا تضعف أمام الضغوط. هي ميزان دقيق بين النفس والناس، بين الشريعة والرحمة، بين الموقف والمبدأ.

المسلم الوسطي هو من يُحسن الظن دون سذاجة، ويغضب للحق دون طغيان، ويُسامح دون ضعف، ويأخذ بحقه دون اعتداء.

بهذا الاتزان، يصبح خُلقه منبرًا يهتدي به الناس، ويُبعث يوم القيامة في مقعدٍ كريم مع الذين قال فيهم النبي ﷺ:

"إن من أحبكم إليَّ، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا" رواه الترمذي (2018) وصححه الألباني

الفصل الخامس: الوسطية بين الخوف والرجاء

في طريق العبودية، لا يسير المسلم بقلبٍ جامدٍ لا يعرف الانفعال، ولا بروحٍ مضطربةٍ لا تعرف الاستقرار، بل يسير بقلبٍ حيٍّ يخاف اللّه دون يأس، ويرجو رحمته دون غرور، يعيش بين جناحيْ الطائر: الخوف والرجاء، ليبقى طير الإيمان محلّقًا إلى اللّه، لا يسقط في هاوية الغلوّ ولا يُحبَس في ظلمة التقصير.
وقد علّمنا اللّه سبحانه هذا التوازن، فقال جل شأنه:
"نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ" (سورة الحجر: 49-50)
فهكذا جاءت الوسطية القرآنية: وعدٌ ووعيد، جنةٌ ونار، رحمةٌ وعقاب، لكي لا يطغى الرجاء فيتحوّل إلى أمانيّ فارغة، ولا يطغى الخوف فيتحوّل إلى قنوطٍ قاتل.

الخوف المعتدل: رادع لا قاتل

إنّ الخوف من اللّه نعمة، إذا وُضع في موضعه الصحيح. هو الخوف الذي يدفعك للطاعة، لا ذاك الذي يُشلّ حركتك ويغرقك في وساوس الشيطان. قال اللّه تعالى:
"فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" (سورة آل عمران: 175)
وقد كان رسول اللّه ﷺ أشدّ الناس خشيةً للّه مع طمأنينة قلبه، فقد روى مسلم في صحيحه عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ:
"إني لأعلمكم باللّه، وأشدكم له خشية" (صحيح مسلم، رقم الحديث: 2356)
الخوف هنا ليس ظلمة، بل نورٌ يضيء لك حدود اللّه، فلا تتجاوزها.

الرجاء المتزن: أملٌ يدفع ولا يُغري

الرجاء في اللّه أيضًا رحمة، لكن حين يضيع توازنه، يتحوّل إلى أمانٍ كاذب، فيطمئن العبد لمعصيته، ويُمنّي نفسه بمغفرةٍ بلا توبة، وهذا ضلالٌ لا يرضاه اللّه.
قال رسول اللّه ﷺ:
"الكَيِّسُ من دان نفسَه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسَه هواها، وتمنّى على اللّه الأماني"
(رواه الترمذي، رقم الحديث: 2459، وقال: حديث حسن)
فالرجاء الصحيح هو ما يدفعك للعمل، لا ما يُسكّن ضميرك ويغريك بالتسويف.

الوسطية في التربية: لا ترهيب ولا تخدير

حين نربي أبناءنا أو نوجّه الناس، لا نغرقهم بالترهيب فنجعلهم يظنون أن اللّه لا يغفر، ولا نغرقهم بالترغيب فنجعلهم يظنون أن الجنة مضمونة بلا سعي.
قال الإما م أحمد: "ينبغي أن يُخَوَّفَ العبدُ حتى يسلم، ويُرَغَّبَ حتى يعمل، فلا يكون الخوف قنوطًا، ولا الرجاء غرورًا".

نماذج نبوية في التوازن

كان النبي ﷺ يجمع بين الخوف والرجاء في دعائه، فقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي اللّه عنها أنه كان يقول:

"اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها" (صحيح مسلم، رقم الحديث: 2722)

ولم يكن يذكر الجنة إلا ومعها العمل، ولا النار إلا ومعها التحذير، وهذا هو التوازن الذي ينبغي أن نسير عليه.

خلاصة الفصل

الوسطية بين الخوف والرجاء تعني أن تخاف فتجتهد، وترجو فترتاح.

الخوف يحفظك من المعصية، والرجاء يحملك على الطاعة.

المسلم الوسطي لا يقنط من رحمة اللّه، ولا يأمن مكر اللّه.

التربية الوسطية تجمع بين ترقيق القلوب وتحفيز العقول، دون إسراف أو تقصير.

قال تعالى:

"وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ" (سورة الأنبياء: 90)

فكن عبداً للّه، يخاف مقامه ويطمئن إلى رحمته، تسير بقلبك بين نورَيْن، لا تغرقك الظلمة، ولا تخدعك الأماني.

الفصل السادس: الوسطية في الفِكر والاعتقاد

الحمد للّه الذي هدانا للإيمان، وشرح صدورنا للقرآن، وجعل في اتباع نبيه محمدٍ صلى اللّه عليه وسلم النورَ والبرهان، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، خيرُ من جسّد الوسطية في كل أمر، وعلّمنا كيف نعبد اللّه بعقلٍ متزن وقلبٍ مطمئن.

لقد كان من أعظم مجالات الوسطية التي جاء بها الإسلام الوسطية في الفِكر والاعتقاد، ذلك الركن الجوهري الذي يقوم عليه الدين، ويُبنى عليه السلوك، ويتشكل من خلاله ميزان الإنسان في الحكم على الأمور، وفي فهم العقيدة، وفي رسم صورة اللّه، والنفس، والكون، والغاية من الحياة.

إنّ الاعتقاد في الإسلام ليس مجموعة شعارات تُردد، ولا أفكارًا جامدة تُورّث، ولا فلسفاتٍ غامضة تُعتنق، بل هو نورٌ من اللّه يُلقى في القلب، ويقترن بالعقل، ويُغذّيه الوحي. وقد جاء الإسلام يرفض الغلو في العقيدة، كما يرفض التفريط والانحراف عنها، قال اللّه تعالى:

"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ" (سورة النساء: 171)

فكان من منهج الإسلام أن رفض تأليه البشر كما فعلت النصارى بعيسى عليه السلام، ورفض كذلك إنكار النبوات كما فعلت بعض الفرق الضالة، بل قدّم للناس تصوراً واضحاً عن اللّه عز وجل، قائمًا على التنزيه بلا تعطيل، والإثبات بلا تمثيل، قال تعالى:

"لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" (سورة الشورى: 11)

وفي المقابل، لم يترك الإسلام العقل معطلًا، ولم يُغلق باب النظر والتفكّر، بل دعا الإنسان إلى إعمال عقله، والنظر في الآيات، والتفكّر في آفاق الكون، وهذا في حدّ ذاته تمييزٌ لوسطية هذا الدين، قال تعالى:

"أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (سورة البقرة: 44)

"أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ" (سورة الروم: 8)

"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (سورة النحل: 11)

فمنهج الإسلام إذاً هو إيمانٌ مبنيٌّ على العلم، ويقينٌ مقرونٌ بالبصيرة. ولهذا لم تكن العقيدة الإسلامية يوماً قائمة على الإكراه أو القهر، بل على القناعة الداخلية، قال اللّه تعالى:

"لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" (سورة البقرة: 256)

وفي هذا الباب أيضًا، جاء النبي صلى اللّه عليه وسلم مُجسّدًا لهذه الوسطية، فلم يكن متشدّدًا في تعامله مع المخطئين في العقيدة، بل كان يوجّههم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويحتضنهم برفق القول وصدق الفعل، كما ورد عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال لمعاذ بن جبل:

"أتدري ما حق اللّه على العباد؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا." (رواه البخاري ومسلم)

ولأنّ العقيدة هي جذر السلوك، فقد أثمر هذا المنهج الوسطي سلوكًا مستقيمًا، متزنًا، عادلًا في التصور والواقع، فالمسلم يعبد ربّه، ولا يعبد سواه، لكنه لا يَحقِر غيره، ولا يُكره أحدًا، ولا يعتدي على من خالفه.

بل يؤمن أن الهداية بيد اللّه، وأنّ واجبه الدعوة لا السيطرة، قال تعالى:

"فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ" (سورة الغاشية: 21—22)

وهكذا، فإنّ الوسطية في الفكر والاعتقاد هي التي تُنقذ المسلم من الوقوع في مزالق الغلو والتطرف، كما تُنقذه من مستنقع الشك والضياع، وتُثبّته على جادة الإيمان النقي، والتوحيد الخالص، والعقل النوراني.

ومن أراد أن يعيش بهذه العقيدة الوسطية، فعليه أن يتعلّمها من مصادرها الأصيلة، وأن يسأل العلماء، ويصحح فهمه، ويبتعد عن الانحرافات التي قد تتزين بأسماء براقة، لكنها تخالف روح الإسلام.

نسأل اللّه أن يجعلنا من أهل العقيدة الصافية، والعقل الواعي، والقلب السليم، وأن يثبّتنا على الإيمان حتى نلقاه.

"رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ" (سورة آل عمران: 8)

الباب الثاني: مظاهر الانحراف عن الوسطية

الفصل الأول: الغلو في الدين

إنّ من أعظم ما حذّر منه الإسلام في منهجه التربوي والفكري والسلوكي: الغلو في الدين، ذلك الانحراف الذي يبدأ من رغبة في الطاعة، ثم يتحوّل إلى تجاوزٍ للحدود، واعتداءٍ على روح الشريعة التي بُنيت على الرحمة واليسر والتوازن. والغلوّ، وإن تزيّن بثوب الحماسة، إلا أنّه يُخفي في باطنه تشويهًا لمقاصد الدين، وانحرافًا عن صراط الله المستقيم.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ (النساء: 171)

فهذه الآية وإن نزلت في أهل الكتاب، فهي تحذير أيضًا لأمة الإسلام من الوقوع في ذات الفخ الذي سقط فيه من قبلنا.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين" رواه النسائي وصححه ابن حجر.

إنّ الوسطية هي خطّ الاعتدال بين الإفراط والتفريط، فإذا تعدّى المسلم حدود المشروع، ودخل في دائرة المشقة المفرطة، فقد ابتعد عن جوهر الإسلام الذي وصفه الله بقوله:

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: 78)

لقد وقع الغلوّ في الدين في أشكال كثيرة، منها: التشدد في العبادات حتى تُصبح عبئًا بدل أن تكون راحة للروح، ومنها تكفير الناس بغير علم ولا بيّنة، أو الحكم عليهم بالفسق والضلال لمجرّد مخالفة في مسألة اجتهادية أو فرعية. وهذا كله مخالف لهدي النبي ﷺ، الذي كان أرحم الناس بأمّته، وكان يقول:

"إن هذا الدين يُسر، ولن يُشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه" رواه البخاري.

وقد شُكّلت أول فرقة في الإسلام على أساس الغلو والتطرف، وهم الخوارج، الذين بالغوا في التأويل، وكفّروا أصحاب الكبائر، وخرجوا على جماعة المسلمين. وقد قال عنهم النبي ﷺ:

"يَمرُقُونَ من الدّينِ كما يَمرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّة" رواه البخاري ومسلم.

إنّ القلب السليم، لا يحتمل الغلو، ولا يُنتج التشدد، بل يسير في طمأنينة مع ما جاء به الكتاب والسنة، دون إفراط ينهك النفس، ولا تفريط يُهلكها. ومن تمام الدين أن يعرف المرء حدود ما أُمر به، وحدود ما نُهي عنه، وأن يقف عندها دون تعدٍّ ولا تقصير.

قال تعالى في وصف الأمة الوسط:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: 143)

فكيف نكون وسطًا إذا تشدّدنا على أنفسنا وعلى غيرنا حتى ضاقت علينا رحمة الإسلام؟

إن المسلم الوسطي لا يَغلو في الفتوى، ولا يَغلو في الحكم على الناس، ولا يُحكم على عباد الله بالضلال إلا بدليل قطعي، لا بشبهة، ولا بهوى.

وليس الغلو محصورًا في الفكر والعقيدة فقط، بل حتى في الحياة اليومية؛ فمن الناس من يُنفق فوق طاقته في سبيل المظهر، ويُحمّل نفسه ديونًا من أجل مدح الناس، وهذا غلوّ في باب الدنيا، كما أن هناك من يعتزل المجتمع بحجة النجاة، وهو غلوّ في فهم العزلة.

وقد قال رسول الله ﷺ حين بلغه أن بعض الصحابة قرّر أن يصوم الدهر، أو لا يتزوّج النساء، أو لا ينام الليل:

"أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" رواه البخاري.

إن هذا الحديث يُغلق باب الغلوّ بإحكام، ويضع ميزان الوسطية في يد كل مسلم، ليعرف أن الدين ليس بالتشديد، بل باتباع السُّنّة.

وفي زماننا، قد يتسلّل الغلو إلى النفوس باسم "الالتزام"، فيُدخِل الناس في مشقّات ما أنزل الله بها من سلطان، ويجعل الإسلام صعبًا منفرًا، لا سهلاً محبوبًا. وهذه مصيبة كبرى. قال الله تعالى:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة: 185)

فعلينا أن نُجدد فهمنا للدين، وأن نُخلّصه من شوائب الغلو، وأن نرجع إلى الأصل النبوي الصافي، حيث الرحمة واللين والاعتدال.

خلاصة الفصل:

الغلوّ في الدين مظهر من مظاهر الانحراف عن الوسطية التي أمر الله بها، وهو طريق الهلاك وإن لبس لبوس الطاعة. الإسلام دين يسر، قائم على الرحمة والتوازن، والنبي ﷺ كان وسطًا في كل شيء، فعلينا أن نسير على نهجه، فلا نُرهق أنفسنا ولا نُشدّد على غيرنا، بل نعبد الله بما شرع، لا بما استحسناه نحن.

الفصل الثاني: التفريط في الدين

إن التفريط في الدين لا يقل خطراً عن الغلو فيه، فكما أن التشدّد يخرج الإنسان عن حدود الاعتدال، فإن التهاون والتقصير يقذف به إلى هاوية الإهمال والتفلت، وقد نهى الله عز وجل عن كلا المسلكين، ودعا الأمة إلى سلوك طريق الاستقامة بلا زيادة ولا نقصان.

التفريط هو التضييع والتقصير في الواجبات، والانشغال بالشهوات، والغفلة عن ذكر الله، وترك أوامر الشرع باسم "اليسر" أو "الرحمة"، حتى يغدو الإنسان عبداً لهواه، لا عبداً لربه، فتضعف صلته بالله، وتبهت معالم الإيمان في قلبه، ويستسهل الذنب حتى يصبح عادة.

قال تعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (سورة مريم: الآية 59)

وفي هذه الآية تحذيرٌ شديد من التفريط في ركن من أعظم أركان الدين وهو الصلاة، التي إن ضُيّعت فكل ما بعدها أهون. ومن يتبع شهواته بلا ضابط من دين، فهو عُرضة لأن يُبتلى في دينه وعقيدته، ويعيش حياته بلا نور من الله ولا بركة.

وقد قال النبي ﷺ:

"إنّ أخوفَ ما أخافُ على أُمَّتي الأئمّةُ المُضِلُّونَ" رواه أحمد وصححه الألباني

ومن أعظم صور الإضلال: التهاون في حدود الله، والسكوت عن المنكرات، ونشر ثقافة التفريط تحت ستار "الحرية" أو "الانفتاح"، حتى يُصبح المعروف منكراً والمنكر معروفًا.

ومن صور التفريط التي ظهرت في مجتمعاتنا اليو م:

التساهل في أداء الفرائض، كالصلاة والصيا م والزكاة

المجاهرة بالمعاصي بلا حياء

تقليد الغرب في كل ما ينافي القيم الإسلامية

ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تبرير المحرمات بتأويلات باطلة أو حجج عقلية

إن من أخطر نتائج التفريط أن يعتاد القلب على الذنب، ويألف المعصية حتى يفقد حرارة التوبة، ويعيش في غفلة لا توقظه إلا فاجعة الموت أو البلاء، وقد قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰ هُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾ (سورة الحشر: الآية 19)

فنسيان الله ليس فقط بترك الذكر، بل يشمل ترك الطاعة والحياء والخشية، فإذا نسي العبد ربّه أنساه الله نفسه، فلم يعرف مصلحته، ولم يحرص على نجاته.

والمؤمن الحق هو من يسير بين الخوف والرجاء، بين الخشية من التفريط، والحرص على عد م الغلو، لأن الميزان في قلبه هو ما شرعه الله لا ما تشتهيه النفس أو يزيّنه الشيطان.

قال الإما م الشافعي رحمه الله:

"من استغنى عن الله هلك، ومن استغنى بالناس ذلّ، ومن استغنى بعقله ضلّ، ومن استغنى بالعلم وحده زلّ، فكن بالله مع الله في كل حال."

ولذلك، فإن علاج التفريط لا يكون إلا:

بصحبة صالحة تذكّرك بالله

وبالعلم الشرعي الذي يضبط القلب ويهذب الفهم

وبالإكثار من ذكر الله

وبمحاسبة النفس ومراقبتها

وبالعودة إلى القرآن الكريم الذي يُصلح الفطرة ويُحيي القلب

فلا يكن حُب الدنيا ولا الركون إلى الراحة سببًا في ضياع الآخرة، ولا تجعل التساهل في حدود الله بابًا لضعف الإيمان وخسارة الحسنات. قال تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (سورة الزلزلة: الآيتان 7-8)

اللهم لا تجعلنا من الغافلين، ولا من المفرّطين في حقك، ووفّقنا لطاعتك، وأحيِ قلوبنا بذكرك، واغفر لنا ذنوبنا إنك أنت الغفور الرحيم.

الفصل الثالث: الفهم الخاطئ للنصوص الشرعية

في عالم يسير بسرعة، ويشهد تقلبات فكرية وثقافية غير مسبوقة، تزداد الحاجة لفهم صحيح ومتزن للنصوص الشرعية، فالفهم الخاطئ لها قد يُفضي إلى التشدد والغلو، أو إلى التفريط والانحلال. وإن من أسباب الانحراف عن الوسطية في الإسلام: التفسير المجتزأ أو المتعجل للآيات والأحاديث، دون النظر إلى السياق الكامل، أو مقاصد الشريعة، أو حتى قواعد اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم.

لقد نزل القرآن الكريم ليكون هداية ورحمة للعالمين، وبيانًا شافيًا لطريق النجاة، لكن هذه الهداية لا تُنال بمجرد القراءة السطحية أو التمسك بظاهر النص دون فهم أو علم، قال تعالى:

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]

فما نراه اليوم من شيوع الفتاوى الشاذة، والتفسيرات المغلوطة، والحكم على الناس أو الفرق بناءً على آية واحدة أو حديث منفرد، هو من صور الانحراف الخطير عن المنهج الوسطي. وهذا ليس وليد العصر فقط، بل كان موجوداً منذ القدم، وقد حذر منه النبي ﷺ، فقال:

"سيكون في آخر الزمان قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية." رواه البخاري (رقم 6531) ومسلم (رقم 1066)

وهؤلاء هم الخوارج، الذين أخذوا النصوص بغير علم، فخرجوا على جماعة المسلمين، وسفكوا الدماء، وادّعوا أنهم على الحق وهم أبعد ما يكونون عنه.

وإن أعظم ما يضبط الفهم للنصوص هو الرجوع إلى تفسير السلف الصالح من الصحابة والتابعين، الذين شهدوا التنزيل وعرفوا لغة القرآن، وتلقوا الدين عن النبي ﷺ بلا وسيط. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعتمونا نقول في شيء: قال الله، فاعلموا أننا نقلنا عن رسول الله ﷺ."

وقد دعا الله عباده إلى التثبت وعدم إطلاق الأحكام دون علم، فقال:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36]

ومن مظاهر الفهم الخاطئ للنصوص:

أخذ الآية أو الحديث دون سياقه الكامل، كمن يقرأ قول الله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾

ثم يتوقف، دون أن يُكمل بقية الآية:

﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: 4-5]

فيظن أن الصلاة سبب للعذاب، والعياذ بالله.

الخلط بين الأحكام العامة والخاصة، كمن يُعمم حكمًا نزل في فئة معينة على جميع المسلمين.

الاعتماد على أحاديث ضعيفة أو موضوعة، دون علمٍ بصحتها، أو دون مراجعة أهل الحديث.

إهمال مقاصد الشريعة، وهي حفظ الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسل، مما يجعل بعض الفتاوى تُلغي روح الإسلام لصالح جمود النص.

إن وسطية الإسلام ليست فقط في الأحكام، بل في الفهم والتأويل أيضًا. والنجاة تكون بالجمع بين النصوص، والنظر في أسباب النزول، والتفسير الصحيح، والاستعانة بأهل العلم. كما قال الإمام الشافعي رحمه الله:

"ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ، فمهما بلغ علم الرجل، فلا غنى له عن طلب المزيد والفهم المتجدد."

وفي زماننا هذا، كثُرت مصادر الفهم السطحي، وقلّ التدبر، فصار الناس يأخذون دينهم من مقاطع قصيرة أو منشورات مبتورة، دون أن يتحروا العلم الموثوق، أو يُراجعوا العلماء. قال رسول الله ﷺ:

"من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ." رواه الترمذي (رقم 2952) وقال: حديث حسن

فالحذر الحذر من العبث بكتاب الله وسنة نبيه، ولنتعلم أن نقول "لا أعلم" إذا جهلنا، فإن ذلك من الإيمان، وأن نُعرض أنفسنا على العلماء الثقات، فإن فيهم النور والهداية.

وفي الختام، فإن الطريق إلى الفهم الصحيح يبدأ من نية صادقة، وعلم متين، وتواضع للحق. والوسطية في الفهم هي جسر النجاة بين الإفراط والتفريط، وبين الغلو والانحلال، وهي التي تحفظ للدين نوره، وللمسلم طريقه، وللمجتمع أمنه واستقراره.

اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا، وزدنا فهمًا وهُدى، واجعلنا من الراسخين في العلم، المتمسكين بكتابك وسنة نبيك، بلا غلوٍّ ولا جفاء.

الفصل الرابع: التشدد باسم الحزم

الحمد للّه الذي أنزل الكتاب تبياناً لكل شيء، وجعل هذا الدين القويم رحمة للعالمين، والصلاة والسلام على النبي الهادئ إلى سواء السبيل، الذي قال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ» رواه البخاري.

إن من مظاهر الانحراف عن المنهج الوسطي الذي دعا إليه الإسلام، ما نراه من بعض الناس من تشددٍ ظاهر، وقسوةٍ في الفهم والتطبيق، يُلبَس لبوس الحزم والتمسك بالدين، بينما هو في حقيقته انحراف عن روح الإسلام، وبعد عن سُنّة النبي ﷺ، وتنكبٌ للطريق المستقيم الذي سار عليه الصحابة والتابعون.

فالحزم في الدين لا يعني الجفاء، ولا يعني التكلّف الزائد، ولا فرض ما لم يفرضه اللّه، ولا التشدُّد في غير موضعه. بل الحزم الحقيقي هو التزام ما أمر اللّه به كما أمر، واتباع السنة دون زيادة أو نقص، مع مراعاة حال الناس، وظروفهم، وأعذارهم، دون تعطيلٍ للأحكام ولا تشويهٍ للشرع.

وقد حذر النبي ﷺ من الغلو والتشدد، فقال:

«إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ» رواه النسائي وصححه الألباني.

والغلو هو مجاوزة الحد، والمبالغة في الأمر حتى يتعدى ما شرعه اللّه، تحت دعوى الخوف من التقصير أو الرغبة في زيادة الأجر.

ومن صور التشدد باسم الحزم، إنكار الرخص الشرعية، وعدم قبول التيسير الذي جاءت به الشريعة، مثل رفض الجمع في الصلاة عند الحاجة، أو إنكار الفطر في السفر، أو إنكار تخفيف الوضوء في المرض، بل ووصف من يأخذ بهذه الرخص بأنه متهاون أو ضعيف الإيمان، وهذا من الجهل والتعسف.

ومن صور التشدد كذلك، تتبُّع الأقوال المتشددة وفرضها على الناس، وتخطئة من أخذ بالأيسر من أقوال أهل العلم الثقات، واتهامه باتباع الهوى، في حين أن هذا الأيسر قد يكون هو ما دل عليه الدليل، وما اختاره كبار العلماء والفقهاء عبر العصور.

وقد وصف اللّه نبيه الكريم ﷺ بقوله:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

وهل التشدد يتفق مع الرحمة والرأفة؟ وهل يعقل أن يكون النبي ﷺ رفيقًا بالناس، ونحن أشدّ عليهم منه؟!

إن التشدد، وإن بدا لصاحبه قوةً في الظاهر، فإنه في حقيقته ضعف في الفهم، وقصور في الإدراك، وبعدٌ عن مقاصد الشريعة. فقد قال النبي ﷺ:

«اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ» رواه مسلم.

وقد كان الصحابة رضوان اللّه عليهم أحرص الناس على التمسك بالسنة، ومع ذلك ما عرف عنهم التشدد ولا التعنيف، بل كانوا يعلمون الناس بلطف، ويتنازلون عن بعض الأمور المباحة رحمةً بالناس، كما في موقف معاذ بن جبل رضي اللّه عنه حين أطال الصلاة، فأنكر عليه النبي ﷺ وقال:

«أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟!» رواه البخاري.

والتشدد كذلك يُنفّر الناس من الدين، ويصدهم عن سبيل اللّه، ويجعلهم ينظرون إلى الإسلام وكأنه عبء لا يُحتمل، أو ضيق لا يُطاق، بينما قال تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

وإن المتأمل في سير العلماء الربانيين، يجدهم رحماء بأقوامهم، يفهمون المقاصد قبل الألفاظ، ويراعون أحوال الناس، ويُقدّرون ظروفهم، ويختارون الفتوى التي تقرّبهم إلى الله لا التي تعذّبهم.

فالحزم الحقيقي لا يكون بالتشديد، بل بالثبات على المنهج، مع الفقه والحكمة والرحمة. والتمسك بالدين لا يعني التشدّد، بل يعني الفهم الصحيح، والاتباع الرشيد، والتعامل مع الناس بما يُحب الله ويرضى.

نسأل الله أن يجعلنا ممن فهموا دينه فهمًا صحيحًا، وبلغوه كما بلّغه نبي الرحمة، لا نزيد فيه ولا ننقص، ولا نغلو فيه ولا نُفرّط، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

الفصل الخامس: التحلل باسم التيسير

في زمن كثرت فيه الدعوات باسم "الحرية" و"التيسير"، غابت الحدود بين التيسير المشروع، وبين التحلل من القيم، حتى أصبح البعض يُشرّع لأنفسهم ما لم يُنزّل الله به سلطانًا، ويستندون في ذلك إلى نصوص مجتزأة من سياقها، أو تأويلات باطلة، ليُبرروا السقوط الأخلاقي والتفريط العقدي باسم "التيسير".

إنَّ الإسلام جاء بالتيسير، لكنه لم يأتِ بالتسيُّب. جاء برفع الحرج، لكنه لم يلغِ حدود الله. قال الله تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [سورة البقرة: 185]

ولكن هذا اليسر مقيدٌ بقيود الشرع، مضبوطٌ بميزان الحكمة، لا يُفهم على أنه تفلّت من الأوامر، أو تحلُّل من الواجبات.

التيسير: منهج نبوي

جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ:

«إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا...» رواه البخاري (39)

وهذا الحديث أصل عظيم في التيسير، لكنه لا يعني إسقاط الواجبات، أو إباحة المحرمات، بل يعني التدرج، والرحمة، ومراعاة أحوال الناس، دون مخالفة صريحة لأوامر الله.

لقد كان النبي ﷺ أرحم الناس بأمته، ولكنه وقف موقف الحزم حين يُعتدى على حدود الله. فعن عائشة رضي الله عنها قالت:

"لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها" متفق عليه

فهذه هي الوسطية في التيسير: رحمة في موضعها، وشدة في موضعها، عدل لا ظلم، حكمة لا طيش، قوة لا غلو، ولين لا ضعف.

مظاهر التحلل باسم التيسير:

ترك الصلاة بحجة أن "الله غفور رحيم":

يُترك عمود الدين، ويُستدل على ذلك بصفة من صفات الله دون اعتبار لباقي صفاته كـ"شديد العقاب".

التحلل الأخلاقي باسم "التطور والانفتاح":

يُبرر السفور، والفجور، والاختلاط المحرم، بحجة مسايرة العصر.

الفتاوى الشاذة التي تبيح المحرمات:

كمن يُحل الربا، أو الزنا المغلف بعناوين أخرى، تحت ذريعة "الضرورات تبيح المحظورات" دون تحقق الضرورة.

التهوين من المعاصي بحجة "عدم التشدد":

حتى أصبح إنكار المنكر يُعد تطرفًا، وغض البصر تعقيدًا.

قال الله تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة المائدة: 47]

الوسطية لا تبرر الباطل

التيسير لا يعني التنازل عن الحق، ولا التلون بحسب الأهواء. بل هو مبدأ عادل، يقوم على فهم شامل للدين، وأخذ الدين بجميع جوانبه، لا أن نأخذ منه ما نهوى، ونترك ما نشاء.

قال اللّه تعالى:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: 85]

وهذا هو الخطر الحقيقي: الإيمان الانتقائي، الذي يفرّغ الدين من جوهره ويحوّله إلى وسيلة لتبرير الأهواء، لا منهجًا لتقويم السلوك.

الخاتمة:

التحلل باسم التيسير ليس من الدين، بل هو انحراف عنه، وتزيين للمعصية بثوب الرحمة. إن الوسطية الحقة تُحسن الفهم عن اللّه، وتضع الأمور في مواضعها، وتُراعي الخلق في حدود الخالق.

فلنكن وسطيين كما أراد اللّه، لا كما أراد الهوى. ولنُحيِ في قلوبنا الخوف من اللّه، والرجاء في رحمته، لا أن نجعل رحمته ستاراً لتبرير الذنوب. قال رسول اللّه ﷺ:

"كل أمتي معافى إلا المجاهرين..." رواه البخاري (6069)

اللهم اجعلنا ممن يُحسن الفهم عنك، ويقف عند حدودك، ويتبع رحمة نبيك دون تحلل، ويعيش وسطياً كما أمرت.

الباب الثالث: الطريق إلى الوسطية

الفصل الأول: المعرفة الصحيحة بالدين

الوسطية في الإسلام ليست مجرّد شعور داخلي، ولا موقف عاطفي، بل هي منهج مبني على معرفة صحيحة بدين اللّه، قائمة على الوحي والفهم السليم للنصوص، بعيداً عن الجهل أو التلاعب بالأدلة أو اتباع الهوى.
إن أول خطوات الوصول إلى الوسطية الحقّة تبدأ من العلم. فالعلم هو النور الذي يكشف لك حدود اللّه، ويفرق لك بين الحق والباطل، وبين الغلو والتفريط، وبين الرحمة والتهور.
قال اللّه تعالى:
﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر: 9]
فلا تستوي رؤية الجاهل برؤية العالم، ولا يستوي من يتبع الدليل بمن يتبع العاطفة.

أركان المعرفة الدينية الوسطية:

الرجوع إلى القرآن والسنة بفهم السلف الصالح:
لا يكفي أن نقرأ النصوص، بل لا بد أن نفهمها كما فهمها الصحابة ومن تبعهم بإحسان، فقد نزل الوحي بلغتهم، وشهدوا التنزيل، وكانوا أعلم الناس بالتنزيل والتأويل.

طلب العلم من مصادر موثوقة:

الوسطية لا تُؤخذ من منصات التواصل أو من العامة أو من دعاة الأهواء، بل من علماء راسخين، عرفوا أصول الدين، وتعلموا ميزان الشريعة.

التمييز بين القطعي والظني، وبين الأصول والفروع:

فليس من الحكمة أن نُعظم الجزئيات ونهمل الكليات، أو نُضخّم المسائل الفرعية على حساب القضايا الأساسية.

الربط بين الفهم الصحيح والعمل القويم:

فالعلم الذي لا ينتج سلوكًا مستقيمًا، ليس علمًا نافعًا. والعالم الوسطي هو من يُرشد الناس إلى اللّه، لا من يُحملهم ما لا يطيقون، ولا من يُحل لهم ما حرّم اللّه.

الجهل بالدين سبب كل انحراف:

حين يجهل الإنسان دينه، يكون فريسة للغلو أو للتفريط، فيشد على نفسه ما لم يُطلب منه، أو يفرّط في دينه وهو يظن أنه يُحسن صنعًا.
قال النبي ﷺ:
«من يُرِد اللّه به خيراً يفقهه في الدين» متفق عليه
فمن لم يُرزق الفقه، لم يُرد اللّه به خيراً. والفقه لا يعني الحفظ فقط، بل الفهم والتدبر والعقل، والتطبيق الحسن لأوامر اللّه ونواهيه.

آثار المعرفة الصحيحة في ترسيخ الوسطية:

تزكية النفس وتعظيم الله:

فكلما ازداد العبد علماً، ازداد خشية. قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [سورة فاطر: 28]

الاعتدال في السلوك والتعامل مع الناس:

فلا تكفير، ولا تبديع بلا علم، ولا تساهل في المحرمات باسم التسامح.

ضبط الفتاوى والتوجيهات على ميزان الشريعة:

فلا يُفتح باب للفتاوى الشاذة ولا يغلق باب الرحمة، بل يُسلك طريق التوازن والرحمة والعدل.

واجب المسلم في هذا العصر:

في زمان كثر فيه الجهل بالدين، واختلطت فيه المفاهيم، أصبح طلب العلم الصحيح فريضة زمانية، لا يُعذر أحد بتركه، خاصة مع توفر الوسائل وسهولة الوصول إلى مصادر العلم.

قال الإما م الشافعي رحمه الله:

"كل من تعلم العلم، فعليه أن يُعلّمه، ومن لم يتعلم فهو آثم"

الخاتمة:

المعرفة الصحيحة بالدين هي مفتاح الوسطية، وأساس الاتزان، ومصدر النور في زمن الفتن والانحرافات.

فاطلب العلم، واقرأ القرآن بتدبر، واستعن بالعلماء الراسخين، وكن في دينك وسطاً، فإنك على طريق النجاة.

قال الإما م مالك:

"لن يُصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"

فلنرجع إلى الأصل، ولننطلق بالعلم، لنكون كما أراد الله:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

الفصل الثاني: التحرر من الغلو والتفريط

الوسطية لا تُبنى فقط بالعلم، بل تحتاج إلى تحررٍ داخليّ من الإفراط والتفريط، وتخلٍّ واعٍ عن المبالغة في الدين أو التهاون فيه.
فالغلو والتفريط وجهان لعملة واحدة: كلاهما خروج عن هدي الله، وكلاهما يُبعدان المسلم عن الصراط المستقيم.
قال الله تعالى:
﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [سورة النساء: 171]
فنهى الله أهل الكتاب عن الغلو، وهو تحذير لنا نحن أمة الإسلام أن لا نسير على ذات الطريق.

أولًا: معنى الغلو والتفريط

الغلو: هو تجاوز حدود الشريعة بالتشدد والتكلف والتنطع. كمن يشدد على نفسه أو على غيره بأحكام لم يوجبها الله، أو يبتدع في الدين ما ليس فيه.
التفريط: هو التهاون، وترك ما أوجبه الله، أو الاستهانة بالمحرمات، بحجة التيسير أو "أن الله غفور رحيم".
والوسطية هي الوقوف بين هذين الطرفين، التزامًا بالوحي، لا بالرأي ولا بالهوى.

ثانيًا: صور الغلو في هذا الزمان

تشديد العبادات بما يُخالف السنة
كمن لا يقبل رخص السفر، أو يرى أن قيام الليل واجب، أو يترك الزواج تعبّدًا.
تكفير الناس بغير حق
وهذا من أعظم أبواب الغلو، وقد وقع فيه من لم يتعلم العلم الصحيح، فاستحلّ الدماء بغير وجه حق.
البدع والتشدد في الدين دون دليل
كمن يبتدع عبادات أو أقوالًا لم ترد عن النبي ﷺ، ويظن أنه بذلك يقترب من الله.
قال النبي ﷺ:
«إيّاكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين» رواه النسائي

ثالثًا: صور التفريط في العصر الحديث

ترك الصلاة أو الصيام بحجة أن الدين يُسر
فالتفريط يبدأ بالتأجيل ثم يجرّ صاحبه إلى الانسلاخ من الدين.
تبرير المعاصي بأنها حرية شخصية
كمن يستحلّ الربا أو العلاقات المحرمة ويزعم أن الدين لا يتدخل في الحياة الخاصة.
رفض الحدود الشرعية بحجة أنها لا تناسب العصر
وهذا من أخطر أنواع التفريط، لأنه يطعن في حكم الله.
قال الله تعالى:
﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: 85]

رابعًا: التوازن بين الخوف والرجاء

الوسطي في دينه لا ييأس من رحمة الله، ولا يأمن مكر الله، بل يسير بين الخوف والرجاء.

إن خاف أكثر مما يرجو، وقع في التشدد.

وإن رجى أكثر مما يخاف، وقع في التفريط.

قال الإمام ابن القيم: "القلب في سيره إلى الله كالطائر، رأسه المحبة، وجناحاه الخوف والرجاء، فإذا كُسر أحد الجناحين، سقط الطائر"

خامسًا: الوسطية طريق النبي ﷺ

النبي ﷺ لم يكن متشدداً ولا متساهلًا، بل كان أوسط الناس هديًا وسلوكًا.

قال لمن بالغ في الصوم: «إن لنفسك عليك حقا»

وقال لمن أراد ترك النوم والنساء: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»

سادسًا: العلاج

طلب العلم الشرعي المعتدل

مراجعة النفس والنية باستمرار

ملازمة العلماء الربانيين

ترك العاطفة والانفعال، والرجوع إلى النصوص الشرعية

الاعتراف بالتقصير دون تبريره أو تهويله

الخاتمة

إن التحرر من الغلو والتفريط هو جوهر الوسطية، وهو دليل على صحة الإيمان ونضج الفهم.

فليكن ميزاننا: قال الله، وقال رسوله، وفعل الصحابة، ولا نزيد ولا ننقص.

ومن سار على هذا الطريق، نجا بإذن الله.

قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

فلا تكن غاليًا ولا مفرطًا، بل كن كما أراد الله لك: معتدلًا، رصينًا، ثابتًا على الحق.

الفصل الثالث: العقل ميزان الاعتدال

من أهم مقومات الوسطية في شخصية المسلم: العقل الراشد، الذي يزن الأمور بميزان الشرع والمنطق، ويتحرر من الأهواء والاندفاعات.

الوسطية ليست عاطفة فقط، بل تقوم على عقل منضبط، يفكر، ويُميّز، ويقيس الأمور بتوازن.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ [سورة طه: 54]

فجعل الله التفكر والتعقل من صفات أصحاب النُّهى، أي أصحاب العقول السليمة.

أولًا: منزلة العقل في الإسلام

الإسلام دين لا يعادي العقل، بل هو أول دين خاطب العقل مباشرة، وجعل العقل مناطًا للتكليف، ومصدرًا للتفكر والتأمل.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [سورة الناس: 1]

وفي موضع آخر:

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة يس: 68]، و﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة السجدة: 4]، و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد: 4]

وهذه إشارات متكررة توجّه المسلم إلى استخدام عقله لفهم الوحي، والنظر في الكون، وتحقيق التوازن في الدين والدنيا.

ثانيًا: كيف يكون العقل ميزانًا للوسطية؟

العقل يُفكّر، لا ينفعل

المسلم الوسطي لا يحكم على الأمور من منطلق الانفعال، بل يُفكر بعقلانية، ويزن المواقف بالدليل لا بالعاطفة.

العقل يحترم النص، ولا يعارضه

فالعقل لا يمكن أن يتعارض مع النص الصحيح، وإذا بدا له التعارض، فالمشكلة في الفهم، لا في النص.

العقل يُفرّق بين الثابت والمتغير

فبعض الأمور تُبنى على الوحي ولا تتغير، كالعقائد والعبادات، وبعضها يُبنى على الاجتهاد كالمعاملات والسياسات.

والمسلم الوسطي يدرك ذلك ولا يخلط بين ما يجوز تغييره وما لا يجوز.

ثالثًا: آفات تغييب العقل

التقليد الأعمى

أن يتبع الإنسان من سبقه دون وعي ولا فكر، حتى إن خالف الصواب. قال الله تعالى:

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [سورة الزخرف: 23]

التعصب والانغلاق الفكري

فالمتعصب لا يرى الحق إلا فيما يقول، ويرفض الحوار والمنطق، ويغلق باب الاجتهاد.

الانبهار بالغرب أو الأهواء

هناك من عطل عقله حين واجه الحضارة الغربية، فظنّ أن كل ما عندهم حق، دون تمييز أو نقد.

رابعًا: علاقة العقل بالوحي

العقل وسيلة لفهم الوحي، لا لمعارضته

الوحي يهدي العقل، والعقل يحرس الوحي من التحريف وسوء الفهم

قال الإما م الشاطبي:

"العقل كالميزان، والشرع كالموزون، فإذا اختل أحدهما فسد الحكم"

خامسًا: الوسطية بين العقل والنقل

هناك من يُقدّ م العقل مطلقًا فيرد النصوص الشرعية، وهذا تفريط.

وهناك من يُلغي العقل بحجة التوكل والتسليم، وهذا غلو.

والوسطي: يُسلّم للنص ويستخد م عقله لفهمه والعمل به.

سادسًا: من مظاهر العقلانية في حياة النبي ﷺ

قبوله بالرأي والمشورة: كما حدث في غزوة بدر وأحد والخندق.

رفضه للتشدد والغلو: كقوله «هلك المتنطعون».

تسامحه مع المخالف: كما قال لليهودي الذي أساء: «رحم الله موسى»

الخاتمة

العقل السليم من أعظم نعم الله، وهو أساس فهم الدين، وميزان الاعتدال في الفكر والسلوك.

لا وسطية بلا عقل، ولا عقل بلا هداية، ولا هداية بلا وحي.

فاحفظ عقلك، وأحسن استخدامه، وكن من أولي النهى الذين استحقوا المدح الرباني، والسير في الصراط المستقيم.

الفصل الرابع: العدل أساس الوسطية

من أسمى القيم التي يقوم عليها الإسلام، والتي تُعدّ عموداً فقرياً للوسطية: العدل.
فالعدل ليس مجرد قيمة أخلاقية، بل هو ركيزة تشريعية وميزان الهي، به يستقيم الدين والدنيا.
قال الله تعالى:
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [سورة النحل: 90]
وهذا أمرٌ مباشر من الله بإقامة العدل، حتى جعل العلماء هذه الآية أعظم آية جامعة في باب الحقوق والمعاملات.

أولًا: العدل في أصل العقيدة

الله سبحانه وصف نفسه بأنه العدل، فلا يظلم أحداً.
قال تعالى:
﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: 49]
وقال:
﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت: 46]
وكل التشريعات السماوية التي أنزلها، بُنيت على العدل، فلا يوجد في شريعة الإسلام ظلم لأحد، لا في الحقوق، ولا في العقوبات، ولا في الميراث، ولا في الشهادة، ولا في الزواج، ولا في الحكم، ولا حتى في الحرب.

ثانيًا: العدل والوسطية في التعامل مع النفس

المسلم الوسطي لا يُفرّط في حقوق نفسه، ولا يُسرف عليها.
لا يُرهق جسده بالعبادة حتى يمرض، ولا يُعطلها بحجة الراحة.
قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو لما بالغ في الصيام والقيام:
"إنَّ لِنَفْسِكَ عليكَ حقًّا..." [رواه البخاري]
العدل مع النفس يعني: موازنة بين الروح والجسد، العبادة والعمل، الدين والدنيا.

ثالثًا: العدل في الحكم بين الناس

قال الله تعالى:
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [سورة النساء: 58]
المسلم الوسطي لا يحكم بالهوى، ولا بالمزاج، ولا بالانتماء.
إنما ينظر في كل قضية بميزان الشرع والحق، سواء كانت لصديق أو عدو.
قال النبي ﷺ:
"لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها" [رواه البخاري]

رابعًا: العدل مع المخالفين

العدل لا يُطبق فقط مع المسلم، بل حتى مع غير المسلم.

قال اللّه تعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: 8]

المسلم لا يظلم المخالف، ولو كان عدوه.

العدل يُظهر جمال الإسلام، وهو باب دعوة للآخرين.

خامسًا: العدل في الأسرة

في النفقة: قال اللّه تعالى:

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [سورة البقرة: 233]

في التعامل مع الأبناء: قال النبي ﷺ حين فضل أحد أولاده بعطية:

"أَشْهِدْ غيري، فإني لا أشهد على جور" [رواه مسلم]

في الزواج: قال تعالى:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [سورة النساء: 3]

العدل داخل البيت يصنع بيئة مستقرة، ويُربّي النفوس على الإنصاف والرحمة.

سادسًا: العدالة الاجتماعية في الإسلام

الإسلام يُقر مبدأ تكافؤ الفرص، وحق الفقراء، ورفض الاستبداد والاستغلال.

الزكاة، والصدقات، والوقف، وكل صور التكافل، نابعة من العدل.

قال النبي ﷺ:

"أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع، فقد برئت منهم ذمة اللّه ورسوله" [رواه الطبراني، بإسناد حسن]

سابعًا: العدل والقيادة

لا تصلح القيادة إلا على العدل.

قال ﷺ: "سبعة يظلهم اللّه... إمام عادل..." [رواه البخاري ومسلم]

العدل في الحكم علامة على صحة الإيمان، واستقامة الطريق، وهو ما يُميّز الأمة المسلمة عن غيرها.

الخاتمة

العدل لا يعني فقط إعطاء كل ذي حقٍ حقه، بل يعني أيضًا الاعتدال في الفهم، والتوازن في التطبيق، والإنصاف في الأحكام.

فالعدل هو قلب الوسطية، وروح الشريعة، وهو الذي يُخرجنا من ظلمات الغلو والتفريط إلى نور الاعتدال والرحمة.

فكن عادلًا في فكرك، في بيتك، في عملك، حتى تكون من أهل الوسط الذين قال اللّه فيهم:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

الفصل الخامس: حِلمه ﷺ وتسامحه مع الخلق

في دروب الحياة الممتدة، يتعثر الناس ويخطئون، ويقعون في الزلل مرّة بعد مرّة، وقد يقابلهم البعض بالجفاء، أو يحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة، إلا أن رسول الله ﷺ كان نهراً من الحلم، ومحيطًا من السماحة، يتسع للجميع، ويعفو إذا قدر، ويصفح إذا أساء الناس، وبهذا اكتمل خُلقه، وتمّ نوره، فكان بحقّ خيرَ من مشى على الأرض خلقًا ورحمةً.

لقد تجلّت الوسطية في حِلمه ﷺ حين لم يكن غضوبًا، ولا عجولًا، ولا جباراً على الناس، بل كان يزن الأمور بميزان دقيق من الحكمة والرفق، فيضع لكل موقف قدره المناسب، لا يترك الحزم عند الحاجة إليه، ولا يفوّت العفو إذا ترجّحت كفته، وكانت تلك الوسطية في الحِلم من أعظم أسباب دخول الناس في الإسلام.

قال الله تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: 159]

فهذه الآية الكريمة ترسم ملامح شخصية النبي ﷺ التي كانت الرحمة والحلم فيها أصلًا ثابتًا، وأساسًا متينًا.

ومن تأمل السيرة النبوية، وجد من المواقف ما لا يحصى، تدل كلها على أن حلمه ﷺ كان عظيماً لا يُجارى، ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم في قصة الأعرابي الذي جاء إلى المسجد، فبال في طَرَفِه، فقام الصحابة ليزجروه، فقال لهم النبي ﷺ:

"دَعُوهُ، وأهريقوا على بوله سَجْلًا من ماء، فإنما بُعثتم ميسّرين ولم تُبعثوا معسّرين"

[رواه البخاري: 220، ومسلم: 285]

وفي موقف آخر، أتى رجل إلى النبي ﷺ يتحدث إليه، فأخذه بشدة من رداءه حتى أثّر في عنقه، وقال له بلهجة غليظة: "أعطني من مال الله الذي عندك، لا من مال أبيك ولا من مال أمك"، فما زاده ذلك إلا حِلماً، فأمر له بعطاء وسكت.

قال أنس بن مالك:

"خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ قط، ولا قال لي لشيء فعلته: لِمَ فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلتَه؟" [رواه مسلم: 2309]

وهكذا كانت وسطية النبي ﷺ في الحلم والتسامح، لا يسرف في التهاون، ولا يجنح إلى العنف، وإنما يُربي القلوب، ويُقوّم النفوس بالحكمة والرفق.

ومن لطائف ما قيل في وصف خلقه ﷺ أنه إذا خاصمه أحد، كان أعفّ الناس لسانًا، لا يلفظ كلمة بذيئة، ولا يرد السيئة بمثلها، بل يُحسن ويصبر، ويُسامح ويعفو، حتى قال تعالى مادحًا إيّاه:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4]

وقد جسد النبي ﷺ هذه الأخلاق في يوم فتح مكة، حين قال للذين آذوه وطردوه وشتموه:

"اذهبوا فأنتم الطلقاء"

رغم أن بيده القوة والسلطان، لكنه اختار العفو، لأنه أعلم الناس بقلوب البشر، وأدراهم بوسيلة التأثير الحقيقية، ألا وهي الحلم والرحمة والعدل.

إننا في زمننا هذا أحوج ما نكون إلى التخلق بحِلمه ﷺ، فالكثير من الناس ينفعلون لأتفه الأسباب، وتعلو أصواتهم عند الاختلاف، ويتعصبون لرأيهم ولو كان باطلًا، ولو اتبعوا منهج نبيهم، وتخلّقوا بوسطيته في الحِلم، لانصلحت مجتمعاتهم، وقلّت النزاعات، وساد بينهم التسامح.

فليكن خلق الحِلم شِعارنا، والرفق منهجنا، والتسامح زادنا، فإنها من صفات المؤمنين الصادقين، كما قال النبي ﷺ:

"ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نُزع من شيء إلا شانه" [رواه مسلم: 2594]

نسأل الله أن يُلحقنا بركاب من اقتفوا أثره ﷺ، ونسجوا على منواله، وسلكوا طريقه، في الحِلم والتسامح، والعدل والوسطية.

الباب الرابع: كيف نعيش الوسطية اليوم؟

الفصل الأول: في البيت والأسرة

في بيوتنا تُبنى أولى لبنات المجتمع، ومنها تبدأ رحلتنا نحو التوازن أو الانحراف. البيت المسلم الذي يسير على منهج الوسطية هو بيت قائم على المحبة والعدل، لا إفراط في القسوة، ولا تفريط في الحزم، بيت يربي أبناءه على القيم الإيمانية والأخلاقية دون غلو ولا تسيّب، ويُشعرهم بأن الدين سَكينة لا شِدة، ورحمة لا عُنف.

لقد كان رسول الله ﷺ هو خير مثال للوسطية في بيته، فلم يكن جافًا ولا فظًا، ولم يكن مُفرّطًا في مسؤولياته الزوجية والأبوية. قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19]

والمعروف هنا لا يعني فقط النفقة أو الكلام الطيب، بل يشمل التوازن في التعامل، في الغضب والرضا، في الطلب والعطاء، في القيادة والتفاهم.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يساعد أهله في البيت، فعن الأسود قال: سألتُ عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت:

"كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة" [رواه البخاري].

وفي هذا الحديث تظهر قمة الاتزان الأسري؛ فهو ﷺ لم يرَ أن الرجولة تعني الانسحاب من مهام البيت، بل شارك وساهم واحتوى، دون أن يُهمل دوره كقائد وربّ.

أما في تربية الأبناء، فالوسطية تتجلى في الرحمة مع الحزم، في التوجيه لا الإهانة، في القدوة لا القمع.

قال رسول الله ﷺ:

"مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَمَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ" [رواه مسلم].

فحين نربي أبناءنا على مبدأ الرّفق، ونحن نُعلّمهم الصلاة، نغرس فيهم حبّ الطاعة لا الخوف منها، وعندما نحدثهم عن الحلال والحرام، لا نفرض عليهم الرهبة، بل نفتح معهم أبواب الفهم، ونقرن النص بالرحمة.

ومن صور التفريط في بيوتنا اليوم، ترك الحبل على الغارب، حيث يتحول الحبّ إلى تدليل، والحرية إلى فوضى، والاحترام إلى تهاون. وفي المقابل، من صور الغلوّ أن يُصبح الأب جنديًا صارمًا، أو تتحول الأم إلى مديرة قاسية، فيسود الصمت والجفاء بدل المودة والرحمة.

والبيت الوسطي هو الذي يُعطي كل فرد مكانته، ويُعلي من شأن الحوار، ويتعامل مع الخطأ بالحكمة لا بالإهانة، ومع الصواب بالتشجيع لا بالمنّ. قال تعالى:

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: 53]

فإذا كان هذا أدب الحديث مع الغرباء، فأولى به أن يكون مع أهل البيت، الزوجة، والأبناء، والآباء.

ليس مطلوبًا أن يكون البيت خاليًا من المشاكل، فذلك مستحيل، ولكن المطلوب أن تسود فيه روح الوسطية التي تَحتوي الخلاف، وتُعيد التوازن حين يختل.

بيت فيه دين بلا تشدد، حب بلا انحلال، تربية بلا تسلّط، وضبط بلا عنف.

ولن يُثمر هذا التوازن إلا إذا بدأ كل فرد من موقعه، فلا يُطالب الزوج زوجته بما لا يُقدّمه، ولا تتوقع الزوجة من زوجها ما لا تحققه، بل يكون التعاون هو اللغة، والرحمة هي الجسر، والنية هي رضا الله.

ومن علامات البيت الوسطي:

وجود وقت جماعي للأسرة يُعيد الألفة

الحوار المنتظم مع الأبناء

وضوح القواعد دون تعسّف

الالتزام بالعبادات كقدوة لا كإجبار

تغليب روح المودة على لغة الأوامر

وفي النهاية، إن بناء بيت وسطي ليس سهلاً، ولكنه يستحق، فهو أول طريق النجاة في الدنيا، ومفتاح النجاح في الآخرة.

قال رسول الله ﷺ:

"خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي" [رواه الترمذي بسند حسن].

فمن أراد الخير حقًا، فليبدأ به في بيته، وبمن معه تحت سقفه، فإنه مسؤول عنهم، وسُيسأل عنهم.

الفصل الثاني: في العمل والرزق

العمل في الإسلام عبادة، متى صلُحَت فيه النية والتزمت فيه الأمانة. والسعي في طلب الرزق لا يتنافى مع الزهد، ولا يقدح في الإيمان، بل هو من مقاصد الشرع التي تحفظ كرامة الإنسان، وتُعينه على عبادة الله دون حاجة إلى خلقه.

قال الله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: 15]

فالدعوة إلى السعي هنا واضحة، والمشي في المناكب إشارة إلى الاجتهاد والجدّ، لا التواكل والكسل.

لكنّ الإسلام أيضًا، حذّر من أن يتحول السعي إلى عبودية، أو أن يطغى حب المال على تقوى القلوب. قال النبي ﷺ:

"إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال" [رواه الترمذي].

فالوسطية في العمل تعني أن نطلب الرزق بشرف، لا بمكر أو خديعة، وأن نُتقن العمل دون أن نجعل النجاح المادي غايةً تبرّر كل وسيلة.

ولنا في رسول الله ﷺ أروع قدوة، فقد عمل بالتجارة وهو شاب، وعُرف بين قومه بالصادق الأمين، لم يَغشّ، ولم يظلم، ولم يخن. كما كان أصحابه رضي الله عنهم يعملون، ويزرعون، ويُتاجرون، وكانوا في نفس الوقت أهل زهد وعبادة.

في واقعنا المعاصر، قد نجد التفريط في جانب، والغلوّ في جانب آخر:

فمن الناس من يتكاسل عن العمل بحجة التفرغ للعبادة، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

"لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة"

ومن الناس من يُفرط في ساعات العمل، ويهمل أهله وعبادته، حتى يُصبح عبداً للوظيفة أو للمشروع، فيخسر دنياه وآخرته.

والمسلم الوسطي هو من يجعل عمله خالصًا لله، مهما كانت المهنة، فلا يُضيع الأمانة، ولا يظلم العاملين معه، ولا يُسرف في الكسب، ولا يتكاسل عن العطاء.

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ﴾ [حديث حسن].

ويتحقق التوازن في العمل بعدة أمور، منها:

ضبط النية: أن يكون العمل وسيلة لعبادة الله، لا غاية دنيوية بحتة.

الإتقان دون إرهاق: لا إفراط يُنهك الجسد ويُهمل الروح، ولا تفريط يُميت الكفاءة ويهدر الفرص.

مراعاة الحقوق: كأجر العامل، ووقت الراحة، وعدالة الترقية، والتقدير الأخلاقي قبل المادي.

عدم التكبر: فالوظيفة لا ترفع صاحبها عند الله إلا بخلقه وأمانته، لا بمنصبه.

وقد ذمّ الإسلام أكل المال بالباطل، أو الغش، أو استغلال حاجات الناس، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: 188]

فالعامل الذي يزور تقارير، أو التاجر الذي يغالي في الأسعار بلا مبرر، أو المدير الذي يُهمل العدل بين موظفيه، كل هؤلاء ابتعدوا عن وسطية الإسلام.
كذلك لا يجوز أن يمنعك العمل من أداء الصلاة، أو يُلهيك عن طاعة الله، بل يجب أن يكون الوقت منظماً، والطاعة محفوظة، كما في قول الله تعالى:
﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: 37]
ولعلنا اليوم بحاجة إلى ترسيخ هذا المفهوم:
أن نكون مجتهدين في أعمالنا، ولكن بضمير حيّ، وقلوب مرتبطة بالله، نُراعي القيم قبل الأرباح، ونخاف من الظلم أكثر من الخسارة، ونُحسن إلى الناس لأننا نبتغي رضا ربّ الناس.

وفي النهاية، تبقى القاعدة الذهبية هي:
"اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً."
وهذا هو الإسلام، وهذه هي الوسطية.

الفصل الثالث: في الإنفاق والاعتدال المالي

المال فتنة، واختبار، ونعمة. وهو في يد الإنسان المسلم أداة، لا غاية. ومن تمام الوسطية أن يُنفق المسلم ماله باعتدال، دون إسراف يُهلك، ولا تقتير يُذلّ.

قال اللّه تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67]

فهذا هو الميزان الدقيق: لا سرفًا يُفسد النعمة، ولا شُحًا يُورث القسوة، بل "قوامًا" أي وسطًا مستقيماً عادلاً.

الإنفاق في الإسلام لا يُقاس فقط بالمبلغ، بل بالنية، والوجهة، والتوقيت. فكم من درهم سبق ألف درهم، وكم من متصدق حُرم الأجر لسوء القصد، أو رياء في العطاء.

والقرآن الكريم يدعو إلى الكرم، ويحذر من البخل، ولكنه يُقيم ذلك على ضابط "العدل"، لا التهور، ولا التصنّع.

قال النبي ﷺ:

"ابدأ بنفسك، فتصدّق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك فلذوي قرابتك، فإن فضل عن ذوي قرابتك فهكذا وهكذا..." [رواه مسلم]

فالبذل مطلوب، لكن لا بتهور ولا بتضييع من تعول.

وقد نرى في زماننا مظاهر عدة من الخلل في هذا الباب، منها:

من يُنفق أمواله في الكماليات، والترف، والرياء، ويُهمل أهله أو يضيق على نفسه.

من يزعم الزهد وهو في الحقيقة بخيل، لا يُخرج حق الفقراء ولا يتصدق إلا نادرًا.

من يُغدق على الأغراب، ويُهمل القريب المحتاج حياءً أو تكبّرًا.

من يبني مشاريع خيرية ويُهمِل سداد ديونه أو نفقة أهله.

وقد ضرب النبي ﷺ أروع الأمثلة في التوازن، فكان أجود الناس، لكنه كان لا يُبذّر، بل يوازن بين الإنفاق والإمساك. وكان يقول ﷺ:

"ما نقص مال من صدقة" [رواه مسلم]

وهو يُعلمنا أن ما يُنفق في سبيل اللّه لا يُنقص المال بل يُباركه.

ومن مظاهر الاعتدال المالي:

تخطيط النفقة: أن يُوازن المسلم بين دخله ومصروفه، فيُعطي كل ذي حق حقه، دون أن يُفرط في جهة ويُقصّر في أخرى.

الادخار دون شُح: فالإسلام لا يمنع من الادخار للمستقبل، لكنه يُحذر من كنز المال دون زكاة أو غرض مشروع.

الإنفاق على الوالدين والأهل: فقد جعل اللّه الإنفاق على الوالدين أولوية، بل هو من البرّ، وفيه أجر عظيم.

تقديم الحقوق الواجبة: كالدين، والزكاة، والنفقات، قبل الإنفاق في السنن أو التوسعة على النفس.

الزهد في التفاخر: فلا يشتري المسلم ما لا يحتاجه فقط ليُقال عنه غني أو صاحب ذوق، فهذا يُخالف التواضع والنية الخالصة للّه.

وقد قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: 29]

أي لا تكن بخيلًا، ولا مسرفًا، بل كن حكيمًا.

وفي إنفاق المال، تتجلى إنسانية الإسلام، وعدله، ونظرته الواقعية:

فهو لا يدعو الناس إلى الرهبانية أو التخلّي عن الدنيا، لكنه يحثهم على التوازن، والنية الصادقة، والغاية النبيلة.

وقد جاء في الحديث:

"نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح" [رواه أحمد]

إننا نحتاج اليوم إلى أن نُعيد فهمنا للإنفاق، في زمن كثرت فيه الإعلانات، وتنوعت المغريات، واشتدت فتن المال. فالمسلم الحق هو من يُنفق ماله وهو يَعي أنه سيُسأل عنه:

"من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟"

فليكن شعارنا:

"ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل."

الفصل الرابع: في التوازن بين العمل والعبادة

الإنسان المسلم ليس راهبًا ينقطع في صومعة، ولا عبداً للمال ينشغل بالدنيا عن الآخرة، بل هو عبد للّه في كل حال، يعبد اللّه بقلبه وجسده، ويطلب رزقه بسعيه وجدّه، ويوازن بين حاجات روحه وجسده، فلا يُرهق هذا ولا يُهمِل ذاك.
قال اللّه تعالى:
﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 77]
فالآية ترسم معالم الوسطية بوضوح: اجعل الآخرة هدفك، لكن لا تُهمِل دنياك، ولا تترك السعي والعمل بحجة الزهد أو التفرغ للعبادة.
وقد كان النبي ﷺ وهو سيد العابدين، يعمل، ويقود، ويجاهد، ويُصلح، ويتاجر، ويقوم الليل، ويزور المرضى، ويخيط ثوبه، ويحلب شاته، ويضحك ويجلس مع أصحابه، ويُربي أهل بيته.
وهكذا فهم الصحابة التوازن، فكان عبد الرحمن بن عوف من أغنياء الصحابة، لكنه كان من أكثرهم صدقة، وكان عمر بن الخطاب يعمل في السوق ثم يحكم الأمة، وكان علي بن أبي طالب فارسًا في النهار وقانتًا في الليل.
وقد رفض النبي ﷺ الغلو في العبادة، فقال للرجل الذي نذر ألا يتزوج وألا ينام وألا يفطر:
"أما واللّه إني لأخشاكم للّه وأتقاكم له، ولكنّي أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" [رواه البخاري]
فدين الإسلام ليس دين مشقة، بل دين توازن: عمل بلا غفلة، وعبادة بلا ملل، وسعي بلا طمع، وراحة بلا ترف.

ومن مظاهر التوازن في حياة المسلم:

النية في العمل: فالمسلم إذا خرج لعمله بنيّة إعفاف نفسه وأهله، وخدمة الناس، وطلب الحلال، صار عمله عبادة.
قال النبي ﷺ:
"إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه اللّه إلا أُجرت عليها، حتى ما تجعل في فيّ امرأتك" [رواه البخاري]
فما أعظم الإسلام! يجعل كل عمل دنيوي مقترن بالنية الصالحة عبادة.
تنظيم الوقت: المسلم لا يعيش في فوضى، بل يُقسم يومه بين فرائضه، وعمله، وراحته، وأسرته، وطلب العلم، والترويح عن النفس.
قال ابن مسعود رضي اللّه عنه:
"إني لأمقت الرجل لا أراه في عمل من أعمال الدنيا ولا الآخرة."
فالبطالة ليست من الإسلام.
التفرغ للعبادات في أوقاتها: المسلم لا يُشغله عمل عن الصلاة، ولا تجارة عن الذكر، بل يجعل العبادة محوراً لا هامشًا في حياته.

قال الله تعالى في وصف المؤمنين:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: 37]

الترويح المشروع: فالنفس تحتاج إلى فسحة، واللهو البريء من الدين، وقد قال النبي ﷺ:

"ساعة وساعة" [رواه مسلم]

أي ساعة لروحك، وساعة لبدنك، وساعة لأسرتك، وساعة لربك.

عدم التعلّق بالدنيا: فالمسلم يعمل ويُتقن، لكنه يعلم أن الرزق بيد الله، فلا يُصاب بجنون المال، ولا ينهار عند الخسارة.

قال رسول الله ﷺ:

"لو أن ابن آدم يملك واديًا من ذهب لأحب أن يكون له واديان..." [رواه مسلم]

فالزهد ليس ترك المال، بل ترك تعلّق القلب بالمال.

عدم تأجيل العبادة: كم من الناس يقول: "سأتفرغ للعبادة إذا تفرغت من العمل، أو عندما أتقاعد..."، فيُؤجل قربه من الله إلى حين لا يأتي.

والنبي ﷺ قال:

"اغتنم خمسًا قبل خمس..."، وذكر منها: "وفراغك قبل شغلك" [رواه الحاكم]

التوازن لا يعني أن تكون نصف عابد ونصف عامل، بل أن تعبد الله في عملك، وأن تعمل وأنت على ذكر، وأن تحيا على مبدأ:

"إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين" [الأنعام: 162]

وهكذا، يكون المسلم الوسطي إنسانًا متزنًا، منظمًا، نافعًا، لا ينقطع في العبادة فيقصر في العمل، ولا يغرق في العمل فينسى العبادة. بل هو نورٌ بين الظلمات، قدوةٌ بين الإفراط والتفريط.

الفصل الخامس: الوسطية في العلاقة مع النفس: بين جلد الذات والتساهل

كيف يتعامل الإنسان المسلم الوسطي مع نفسه؟ لا بجَلدٍ يهدُّها، ولا بتساهلٍ يُفسِدها؛ بل بتربيةٍ متزنة، تعرف مواضع اللوم، ومواضع الرحمة.

في هذا الفصل، نُسلّط الضوء على كيف يكون المسلم متوسطًا في تعامله مع نفسه، بعيدًا عن الإفراط في جلد الذات، أو التفريط في المراجعة والمحاسبة. فالنفوس تحتاج إلى تربية، ولكن أيضًا إلى رحمة. لا صلاح بلا عتاب، ولا نجاة بلا تسامح.

أولًا: النفس أمانة

قال الله تعالى:

{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}
[الشمس: 7 — 10]

النفس في الإسلام أمانة يجب تزكيتها، والنجاة في تهذيبها لا في تحقيرها.

ثانيًا: لا إفراط في جلد الذات

جلد النفس بشكلٍ مستمر يُورثُ اليأس والقنوط، والله سبحانه وتعالى نهى عن القنوط من رحمته:

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ}
[الزمر: 53]

فحتى من أسرف، لم يُؤمر بأن يجلد نفسه، بل بالعودة والرجوع والتوبة.

ثالثًا: ولا تفريط في المحاسبة

في الوقت ذاته، لا يجوز أن يتساهل الإنسان في محاسبة نفسه، متذرعًا بأن الله غفور رحيم، فالله أيضًا شديد العقاب.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

"حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزِنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم".

رابعًا: التوازن بين العتاب والرحمة

منهج النبي ﷺ في التربية كان متوازنًا، فهو يوجه بلين، ويُرشد بحكمة، ويُعاتب دون قسوة.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه:

"خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ قط، ولا قال لشيءٍ فعلته: لِمَ فعلت كذا؟"
[رواه مسلم]

فالنبي ﷺ لم يكن قاسيًا، ولا تاركًا للتوجيه، بل مربٍّ رحيم حازم.

خامسًا: كن رفيقًا بنفسك كما أمرك اللّه

قال النبي ﷺ:

"إن اللّه رفيق يحب الرفق في الأمر كله"

[رواه البخاري ومسلم]

فالرفق مطلوب حتى مع النفس، من خلال مراجعة نابعة من محبة الإصلاح، لا من كراهية الذات.

خلاصة الفصل:

المسلم الوسطي يتعامل مع نفسه كما يتعامل ربُّه معه؛ برحمة وتربية، بلين ومحاسبة، لا يجلد ذاته حتى تُرهق، ولا يتركها حتى تنفلت، وإنما يربيها كما يربي الوالدُ الرحيم ولدَه: حبٌ وتأديب، صبرٌ ومحاسبة، تقويمٌ دائم، ودعاءٌ مستمر.

الباب الخامس: ثمار الوسطية في شخصية المسلم

الفصل الأول: السلام الداخلي والسكينة النفسية

كيف تمنح الوسطية المسلم طمأنينة؟ وكيف يعيش بين تقلبات الحياة دون أن يفقد توازنه أو يضطرب قلبه؟ الوسطية ليست مجرد منهج فكري أو سلوك ظاهري، بل هي حالة داخلية من الطمأنينة والتوازن، يعيش بها المسلم في أعماق نفسه، فتنعكس على سلوكه، وتضبط ردود أفعاله، وتصونه من الاضطراب والانهيار في وجه الأزمات.

أولًا: الوسطية تطمئن القلب

قال اللّه تعالى:
{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28]
فالمؤمن الوسطي قلبه مطمئن لا يُغرقه القلق، ولا يجرفه الخوف، لأنه يعرف قدر الأمور، ويثق في حكمة اللّه وتقديره.

ثانيًا: لا إفراط في الحزن ولا فرح مغرور

قال تعالى:
{لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} [الحديد: 23]
فالوسطية النفسية تُجنّب الإنسان المبالغة في الانفعالات؛ لا ينهار حزنًا على فقد، ولا يطغى فرحًا عند رزق، بل يحمد ويصبر، ويظل متزنًا.

ثالثًا: الوسطية تقي من الانهيار

النفس إذا عاشت في التطرف، تعبت واضطربت، وانكسرت عند أول هزّة. أما النفس الوسطية، فهي معتدلة في طموحها، مرنة في تقبلها للواقع، قوية في صبرها، وعاقلة في أحلامها.
قال النبي ﷺ:
"المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى اللّه من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير..." [رواه مسلم]
والقوة هنا ليست قوة الجسد فقط، بل قوة النفس، والثبات، والهدوء عند البلاء.

رابعًا: كيف نحقق السلام النفسي عمليًا؟

بذكر اللّه: وهو أعظم علاج للقلق.
بالتوازن في العمل والراحة: فالنبي ﷺ كان ينام ويقوم، ويعمل ويعتكف، ويضحك ويحزن... بلا إفراط ولا تفريط.
بتقبل القضاء: فالمسلم لا ينهار لأن الدنيا لم تجرِ كما يريد، بل يوقن أنها تجري كما أراد اللّه.
بالبعد عن المقارنات: فالمقارنة تؤذي النفس، والرضا يُسكنها.

خامسًا: من السكينة إلى الثقة

السكينة التي تمنحها الوسطية ليست مجرد حالة وقتية، بل هي أرضية ينطلق منها المسلم ليواجه الحياة بثقة ورضا. لا يشعر بالدونية، ولا يسعى لإثبات ذاته بقلق، بل هو ثابت، لأن اللّه ثبّته.

قال اللّه عن المؤمنين في بدر:

{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا}

[الأنفال: 12]

خلاصة الفصل:

السلام النفسي هو أول وأعظم ثمار الوسطية، وهي نعمة لا تُشترى، ولكن تُزرع بالرضا، وتُروى بالإيمان، وتُحصَد بالتوازن. المسلم الوسطي يعيش في طمأنينة، لأنه يعرف أن الحياة دار ابتلاء، ويثق بأن اللّه لا يُضيع أجر الصابرين، فيمضي... بقلبٍ هادئ، ونفسٍ مطمئنة.

الفصل الثاني: الثبات في زمن الفتن وتقلّب القيم

كيف تكون الوسطية حصنًا للمسلم في زمن التناقضات والانهيارات الأخلاقية؟ وما علاقتها بالثبات على الدين في زمن تغيّرت فيه الموازين وتشوّهت فيه القيم؟

في زمن تتقلب فيه المفاهيم، وتُغيّر فيه القيم جلدها كل يو م، ويصبح المعروف غريبًا والمنكر مألوفًا، يحتاج المسلم إلى بوصلة واضحة تحفظه من التيه، وتثبّته على الصراط المستقيم، وتجنّبه الإفراط والتفريط.

أولًا: الوسطية تُحصّن المسلم من الانزلاق وراء الغلو أو الانحلال

قال تعالى:

{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة: 143]

هذا الوسَط الذي اختاره الله لنا ليس مجرد نقطة في المنتصف، بل هو اختيار إلهي لمنهج قويم يحفظ توازن المسلم بين الجفاء والتساهل، وبين الغلو والتفلت.

فالذي لا يتّبع منهج الوسطية:

إما أن يتشدد فيُحرّم على نفسه ما أحل الله، ويضيق واسع الدين، فيُنفّر الناس من رحمة الله.

أو يتساهل، فيتبع الهوى، ويقع في المحظورات، ويبرر ذلك بأنه "منفتح" أو "متطور".

ثانيًا: الثبات في زمن الفتن لا يكون إلا لمن تزوّد بالوسطية

قال النبي ﷺ:

"يأتي على الناس زمانٌ القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر" [رواه الترمذي]

وهذا الزمان نراه ونعيشه. انتشار الشبهات، والترويج للفواحش باسم الحرية، وتبديل الثوابت تحت رايات زائفة، كلها تحديات لا يصمد أمامها إلا قلب رسخ فيه التوازن.

الوسطي لا يتراجع عن دينه، لكنه أيضًا لا ينغلق على نفسه ويعتزل العالم، بل يعيش الواقع، ويصمد فيه، ويكون كـ"شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء".

ثالثًا: مظاهر الثبات التي تنتج عن الوسطية

ثبات على المبادئ: لا يُغيرها بحسب المزاج أو المصلحة.

ثبات في العبادة: فلا يصلي حين ينشط ويترك حين يكسل، بل يلتزم.

ثبات في الأخلاق: لا يلين في الصدق والأمانة والعفاف، حتى إن تغيرت من حوله الألسن والعيون والقلوب.

ثبات في الأزمات: لا تنهار نفسه عند أول اختبار، لأنه يعرف أن الابتلاء جزء من الطريق.

قال الله تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا} [فصلت: 30]

رابعًا: وسائل تعين المسلم الوسطي على الثبات

العلم الصحيح: فالعلم يحفظ من الشبهات ويثبت القلب.

صحبة صالحة متزنة: تذكّره إذا غفل، وتعينه إذا فتر.

ذكر الله: سلاح لا يُستغنى عنه. قال تعالى:

{فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا}

دعاء الثبات: كان من أكثر أدعية النبي ﷺ:

"يا مُقلّب القلوب، ثبّت قلبي على دينك"[رواه الترمذي]

خامسًا: المسلم الوسطي لا يُغرّه كثرة المنحرفين

في زمن الانفلات والانحدار، قد يشعر المسلم بالغربة، ويتساءل: "هل أنا وحدي من لا يُطبع مع الباطل؟". ولكنه حين يتذكّر أن الحق ليس بكثرة أتباعه، بل بصدقه، يطمئن قلبه، ويثبت، ولا يغترّ بمن غرقوا في بحر الإفراط والتفريط.

قال النبي ﷺ:

"بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء" [رواه مسلم]

الوسطية تجعلك غريبًا أحيانًا، ولكنها غربة شرف لا غربة هوان.

سادسًا: صور عملية للثبات الوسطي

الشاب الذي لا يُصاحب أهل الغلو ولا أهل التفاهة، بل يختار صحبته بتوازن.

الفتاة التي تلبس الحجاب بلا تشدد، ولا تتبرج، وتتحلى بالحشمة والأخلاق.

الموظف الذي لا يسرق بحجة أن "الجميع يفعل"، ولا يُبالغ في الإدانة والنقد، بل يعمل بتوازن.

الأب الذي يربي أبناءه على الدين، دون أن يسجنهم في تشدد، ولا يتركهم للشارع.

خلاصة الفصل:

الوسطية ليست فقط طريقًا للسلام النفسي، بل هي درع الثبات في زمن الفتن. المسلم الوسطي لا يهتز، لأن أقدامه ثابتة على الصراط، ولأن عينه على الجنة لا على ترندات الدنيا.

إنه لا يسير مع التيار، بل يسير حيث أمره الله، ولو كان وحده. وهذا هو الثبات... وهذا هو المجد الحقيقي.

الفصل الثالث: الرحمة والعفو في قلب المسلم الوسطي

إنّ المسلم الوسطي لا يكون متشدّدًا في أخلاقه، ولا قاسيًا في حكمه على الناس، بل هو رجل قلبه عامر بالرحمة، ولسانه مطهَّر من القسوة، وفعله شاهد على الإحسان والعفو والتسامح. تلك الصفات ليست ترفًا روحيًا، بل هي أساس من أسس الشخصية الإسلامية المتّزنة التي دلَّ عليها القرآن الكريم، وهدى إليها النبيّ صلى اللّه عليه وسلم في قوله وفعله.

قال اللّه تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]

فهذا خطاب ربّاني مباشر إلى النبيّ صلى اللّه عليه وسلم، يُبيّن فيه أنّ سرّ التجمُّع حوله والائتلاف به لم يكن إلّا بلين قوله، ورقة قلبه، ورحمته بأصحابه وأعدائه على حدٍّ سواء. فمن كان قلبه كذلك، فقد سار على خُطى النبوّة، واقتدى بمن جعله اللّه رحمةً للعالمين.

وقد وصف اللّه تعالى ذاته العليّة بقوله:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156]

فإذا كانت الرحمة صفة ربّانية وسعت كل شيء، فكيف لا يسعى المسلم إلى أن يتحلّى بها في تعامله مع الناس؟ كيف لا يجعلها سلوكًا أصيلًا في شخصيته، وهو يطلب رحمة اللّه، ويطمع في مغفرته؟

إنّ المسلم الوسطي لا يردّ السيئة بمثلها، بل يعلو فوقها بالعفو، كما قال اللّه تعالى:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلّت: 34]

هكذا تكون القلوب حين تتطهّر من الغلّ وتُروى بماء الإحسان؛ تذوب فيها الخصومة، وتلين فيها الشحناء، وتتحوَّل العداوة إلى مودة.

وقد كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المثل الأعلى في العفو، فقد عفا عن أهل مكة يوم الفتح مع أنّهم آذوه، وأخرجوه من وطنه، وحاربوه وأصحابه، ومع ذلك قال لهم:

"اذهبوا فأنتم الطلقاء" [السيرة النبوية لابن هشام، ج 4، ص 41]

لم يكن ضعيفًا حين عفا، بل كان أقوى ما يكون، ولكن قوّته لم تُترجم إلى انتقام، بل إلى رحمة وعفو.

ويقول النبي صلى اللّه عليه وسلم:

"الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" [رواه الترمذي، رقم الحديث: 1924، وقال: حديث حسن صحيح]

فرحمة الناس ليست فقط سلوكًا أخلاقيًا، بل هي مفتاح من مفاتيح رحمة اللّه، وهي دليل على قلب حيّ لا يعرف القسوة، ولا يحتمل الشماتة أو الغلاظة.

المسلم الوسطي حين يَرحم، لا يرحم الضعفاء فقط، بل يرحم العصاة، ويدعو لهم بالهداية، ويعذر الجاهلين، ويستر على من أذنب، ولا يُشهّر، ولا يفرح بسقوط أحد، لأن قلبه مشغول بالبناء لا بالهدم، وبالإصلاح لا بالإفساد.

وقد أوصى النبي صلى اللّه عليه وسلم أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل حين أرسلهما إلى اليمن فقال:

"يسّرا ولا تُعسّرا، وبشّرا ولا تُنفّرا، وتطاوعا ولا تختلفا" [رواه البخاري، رقم الحديث: 3038]

فكان هذا هو منهج الدعوة والرحمة في التعامل مع الناس، وهو المنهج الذي يجب أن يحمله المسلم الوسطي في قلبه وسلوكه.

ومِن تجلّيات الرحمة والعفو أن المسلم لا يُحاسب الناس على نواياهم، ولا يُدينهم من ظاهر أعمالهم، بل يتأنّى، ويتروّى، ويغلب حسن الظنّ ما استطاع، ولا يُسارع في الحكم أو العقوبة.

وقد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم:

"من لا يَرحم لا يُرحم" [رواه البخاري، رقم الحديث: 6013]

فهذه قاعدة عظيمة تُرهب القلب من أن يكون قاسيًا، وتدفع النفس إلى أن تلين في مواضع الغضب، وتتحمَّل في مواضع الانفعال.

وختامًا، إنّ المسلم الوسطي ليس مثالًا نظريًا صعب التحقيق، بل هو إنسان سويّ، يحمل قلبًا رقيقًا، وعقلًا حكيمًا، ولسانًا ليّنًا، وروحًا متسامحة. الرحمة والعفو ليست ضعفًا، بل هي منتهى القوة والوعي، وهي التي تُقوِّم المجتمعات وتُصلح النفوس، وتُقرِّب الناس من بعضهم، وتفتح أبواب التراحم بينهم. فليكن كلٌّ منا رحيمًا، عفوًا، وسطيًّا في تعامله، ليكون قريبًا من اللّه، حبيبًا إلى الناس.

الفصل الرابع: التوازن في المعاملة مع أهل الذمة وغير المسلمين

إنَّ من أعظم ما تميزت به شريعة الإسلام أنَّها أقامت أُسس المعاملة بين الناس جميعًا على العدل والرحمة، لا على الهوى والتعصب. فجعلت لكل ذي حقٍّ حقه، ووضعت القواعد التي تضبط العلاقة بين المسلمين وغيرهم، خاصة أهل الذمة، الذين يعيشون في كنف المجتمع المسلم.
والمسلم الوسطي ليس متعصبًا، ولا غليظ القلب، ولا يحمل في قلبه حقدًا على غير المسلمين لمجرد اختلاف الدين، بل هو إنسان يتحلى بالعدل والرحمة، ويحترم الإنسان كإنسان، دون أن يفرط في دينه أو يميع عقيدته.

أولًا: الأساس القرآني في التعامل مع غير المسلمين

قال الله تعالى:
﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8].
ففي هذه الآية الكريمة، بيَّن الله أن البرّ والقسط -أي العدل والإحسان- مطلوبان حتى مع غير المسلمين ما داموا مسالمين لا يقاتلون المسلمين ولا يعتدون عليهم، فالتعامل الإنساني الرفيع لا يختص بالمسلم فقط، بل هو عام لكل من لم يُظهر عداوة.

ثانيًا: نماذج من تعامل النبي ﷺ مع غير المسلمين

لقد كان رسول الله ﷺ القدوة الكاملة في التعامل مع أهل الذمة وغير المسلمين، فلم يُعرف عنه ظلمٌ أو تعدٍّ على أحدٍ بسبب دينه.
ومن ذلك:
حين مات يهودي فقام النبي ﷺ لجنازته، فقيل له: "إنه يهودي"، فقال:
«أليست نفسًا؟» [رواه البخاري 1312، ومسلم 961].
وكان يُحسن إلى جاره اليهودي، ويأمر ببره، ويعوده إذا مرض، ويعامله بالأمانة حتى في البيع والشراء.
وهذا يدل على أنَّ التوازن الإسلامي لا يعني الذوبان، ولا يعني العداء، بل هو اعتدال بين الحفاظ على الدين ومراعاة الإنسانية.

ثالثًا: حفظ الحقوق في الدولة الإسلامية

من مقاصد الشريعة الإسلامية الكبرى حفظ النفس والمال والعرض والدين والعقل، وهذه المقاصد عامة لكل من يعيش في كنف الدولة الإسلامية، سواء أكان مسلمًا أو غير مسلم.
وقد روى ابن سعد في "الطبقات" أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ بشيخ يهودي يسأل الناس، فقال: "ما أنصفناك! أخذنا منك الجزية شابًا وتركناك شيخًا"، فأمر له بنفقة من بيت مال المسلمين.
فهذه هي العدالة التي تنبع من الإسلام الوسطي، عدالة لا تفرق بين إنسان وآخر في الحق الإنساني، وإن اختلف الدين.

رابعًا: عدم المداهنة في الدين

إن التوازن لا يعني المساومة على العقيدة أو التقليل من شأن الدين لإرضاء الآخرين، فالمسلم لا يرضى بالظلم، ولا يرضى أن يُستغل حبه للسلام للتنازل عن ثوابته.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: 1-2].

فالموقف واضح، لا عدوان ولا بغضاء، ولكن لا تنازل عن العقيدة أيضًا.

خامسًا: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة

قال تعالى:

﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125].

فالدعوة بالحكمة لا بالغلظة، وبالحسنى لا بالإكراه. وهذا هو النهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ والصحابة من بعده. فكانوا قدوة في حسن المعاملة، ولين القول، وصدق السلوك، مما جذب الناس إلى الإسلام لا بالقوة، بل بالخلق الرفيع.

خاتمة الفصل:

المسلم الوسطي في علاقته بغير المسلمين هو من يعرف قدر دينه فيحافظ عليه، ويعرف قدر الآخرين فيحترمهم. لا يُفرط ولا يُفرِّط. لا يتكبر ولا يذل. يعطي كل ذي حق حقه، ويزن الأمور بميزان العدل، ويحكم على الناس بأعمالهم لا بأديانهم.

وإن التوازن في التعامل مع أهل الذمة وغير المسلمين ليس ضعفًا، بل هو من أعظم تجليات القوة الإيمانية، أن تملك قلبك ولا تجرفك المشاعر المتطرفة.

وصدق الله:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83].

الفصل الخامس: التوازن بين الإنصاف والتجاوز في التعامل مع الخطأ

في حياة كل إنسان، تتكرر المواقف التي يرى فيها خطأً صدر من غيره، سواء في العائلة أو العمل أو المجتمع، وقد يقف حينها أمام مفترق طريق: إما أن يتجاهل الخطأ، أو يبالغ في ردة فعله، أو يسلك مسلك الوسطية الذي يأمر به الشرع، والذي يجمع بين الحزم والرحمة، بين الإنصاف والتجاوز، بين إحقاق الحق وتقدير أحوال الناس.

والإنسان المسلم الوسطي لا تغلبه العاطفة حتى يعميه الحب عن رؤية الخطأ، ولا تجف مشاعره حتى يتحوّل إلى قاضٍ لا يعرف الرحمة. بل هو ذاك الذي يزن الأمور بميزان الشرع والعقل، ويقدم النصح من غير تحقير، ويُبدي العفو من غير ضعف.

يقول الله تعالى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: 126]

فهذه الآية الكريمة تُقرر قاعدة عظيمة: أن العقوبة إنما تكون بمقدار الجُرم، لا أكثر، وأن الصبر والعفو في كثير من الأحيان هو الخيار الأفضل للمؤمنين.

ومن هنا، فإن الوسطيّة في التعامل مع الخطأ تعني أن ننصف من أخطأ، فنبيّن خطأه بغير تجريح، ونحفظ له مكانته وكرامته، إن كان له سابقة خير أو مقام، ونرحمه إن جهل، ونحفظ حدود الله إن تجاوز.

وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:

«المؤمنُ ليسَ بالطعّانِ، ولا باللعّانِ، ولا الفاحشِ، ولا البذيءِ»

[رواه الترمذي، وصححه الألباني]

فمن أخلاق المؤمن الوسطي أنه لا يردّ الخطأ بخطأ، ولا يواجه السيئة بأخرى، بل يكون حسن اللفظ، كريم الطبع، ثابتًا في وجه الخطأ دون أن يتحوّل إلى آلة تهجم أو تسفّه.

بل إن السنة النبوية زاخرة بأمثلة الرحمة المقترنة بالحكمة، كما في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد، فقام الصحابة عليه، فقال النبي ﷺ:

«دعوه، وأريقوا على بوله ذَنوبًا من ماء، فإنما بعثتم ميسّرين، ولم تبعثوا معسّرين»

[رواه البخاري ومسلم]

وفي هذا الموقف دلالة عظيمة على أن معالجة الخطأ ينبغي أن تكون برحمة وتعليم، لا بقسوة وتنديد، وهذا هو جوهر الوسطية.

وما أحوجنا اليوم، في زمن تفاقمت فيه الخصومات واحتدّت فيه الردود، إلى هذا الميزان النبوي الرقيق، الذي لا يسكت عن الخطأ، لكنه لا يهدم صاحبه، ويُصلح الفاسد دون أن يُفسد عليه قلبه أو كرامته.

وقد كان من وصايا لقمان لابنه ما يُشير إلى هذا التوازن الجميل، إذ قال له:

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17]

فهو يأمره بأن لا يُغلبه الانفعال، ولا يسلك طريق التهور، بل يربّيه على الصبر، وهو طريق الأنبياء وأهل العزم، الذين يُصلحون دون أن يُفسدوا، ويُقوّمون دون أن يُقصّوا.

وهكذا يكون المسلم الوسطي في مجتمعه، متوازنًا في رؤيته للأخطاء، لا يسكت عن منكر، ولا يتحول إلى قاضٍ على رقاب الناس، بل يملك بصيرة التمييز، وقلبًا رحيمًا، ولسانًا رفيقًا، ويدًا تصلح قبل أن تعاقب.
إنَّ هذا المنهج هو الذي يصلح النفوس، ويبني المجتمعات، ويُشيع الطمأنينة بين الناس، فيعيش الجميع في ظلّ عدلٍ لا ظلم فيه، وحزمٍ لا عنف فيه، وعفوٍ لا يُفرّط في الحقوق.

وفي الختام، فإن من علامات الإنسان المسلم الوسطي أنه يُحسن تقدير المواقف، ويعلم أن الإنسان لا يُختصر في خطأ، كما أن الصلاح لا يعني العصمة، وأن المقصود من النصح هو الإصلاح لا الفضيحة، وأن الغاية من المحاسبة هي التقويم لا الانتقام.
فاللهم اجعلنا ممن يسلكون سبيل الوسط، ويمشون على هدي رسولك ﷺ، ويُصلحون أنفسهم ومجتمعهم بالعدل والرحمة والبصيرة.

الخاتمـــــة

في زمنٍ اختلطت فيه المفاهيم، واضطربت فيه الموازين، وتنوّعت فيه التيارات، يبقى المسلم الحقّ هو ذاك الذي يستمسك بحبل الله المتين، ويهتدي بنور القرآن والسنة، فيسلك طريقًا وسطًا لا إفراط فيه ولا تفريط، لا غلوّ فيه ولا تمييع، بل هو طريق التوازن والاعتدال، طريق النجاة في الدنيا والآخرة.

إنَّ الوسطية ليست ضعفًا ولا تردّدًا، بل هي وعيٌ ناضج، وبصيرةٌ نافذة، وفهمٌ عميق لدين الله، يجمع بين النص والمقصد، بين الأمر والحكمة، بين الثبات والمرونة. وهي ليست مجرد شعار يُرفع، بل سلوكٌ يُعاش، ومنهجٌ يُترجم إلى مواقف في الأسرة، والعمل، والمجتمع، ومع النفس، والخلق، والخالق.

وقد حاول هذا الكتاب، بكل تواضع، أن يُضيء جوانب متعددة من هذه الوسطية، مستنداً إلى القرآن الكريم الذي جعله الله هدى ورحمة ونوراً، وإلى السنة النبوية التي جسّدت المعنى الحقيقي للإنسان المسلم الوسطي في أفعاله وأقواله.

ولعلّ من أعظم ما يختتم به المسلم رحلته في فهم الوسطية، أن يردّد قول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]

فهذا الوصف الإلهي ليس مجرد مدح، بل تكليف ومسؤولية، تتطلب من كل فرد أن يكون نموذجًا يُحتذى، وأن يُجاهد نفسه ليثبت على الصراط المستقيم، مهما تلاطمت الأمواج أو كثرت الفتن.

نسأل الله أن يجعلنا من أهله الوسط، الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤوا استغفروا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا قالوا صدقوا، وإذا خاصموا فجروا، وأن يرزقنا البصيرة في الدين، والرحمة في السلوك، والثبات على الحق حتى نلقاه وهو راضٍ عنّا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلا م على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.